

ميرنا المهدي

قضية ست الحسن

رواية

تحقيقات نوح الألفي

إهداء

إلى أمي التي أمسكت يدي وعبرت بي الطريق.

وإلى مايا شقيقة روحي ورفيقة دربي.

وإلى كل من علّمني حرفًا، وكل من أحبطني يومًا.

ليس كل ما هو حقيقي منطقيًّا،

وليس كل ما هو منطقي حقيقيًّا.

القضية الأولى

الفتيل

١

سأخبرك ثلاث حقائق عن نفسي:

أولاها أنني أُدعى «نوح».

والثانية أنني أصبحت ضابطًا في المباحث الجنائية تأثرًا بالمحقق كونان.

أما الثالثة، حسنًا، فسأُعلمك بها في الوقت المناسب.

***

بحلول الساعة الخامسة صباحًا، بدأت أتثاءب وأفرك عينَي في محاولة يائسة لصرف شبح النوم الذي تسلل إليّ، حتى دخل قطز المكتب، بقامته الطويلة وشعره الكثيف وأنفه البارز وقميصه الأبيض الذي لا يعرف له الغبار طريقًا.

اقترب من مكتبي بضجته المعهودة، متلهفًا للانقضاض على الفطور الساخن الذي فاحت رائحته من الأكياس البلاستيكية المتخمة بالخبز، والمخللات، والفول، والطعمية المتكومة في أوراق مشبعة بزيت لا يعلم مصدره سوى

الخالق.

نحيت الملفات والدفاتر جانبًا، ثم نشرت صفحة من جريدة الأمس على المكتب لتبقى عازلًا بين أي بُقع تُخلِّفها مجزرتنا الصباحية والخشب الداكن، وأنا أقول متململًا:

- سنة عشان تجيب الفطار يا قطز؟!

فك الأكياس، وبدأ رصها بعناية، وأجابني من دون أن يرفع عينيه عن الطعمية:

- الرائد زفت عطلني!

- صلاح؟

- هو فيه غيره!

انكب على الطعام، وطارت أصابعه بين الأكياس كالصقر، ملتقطًا قطعة من هنا وأخرى من هناك، بينما ركزت أنا على الفول بالكمون والليمون، إلى أن مر الفرَّاش المُسن في الطرقة، فناداه قطز بحماس:

- عم حمدي، الكاكاو بتاعي والنبي.

- عيوني يا باشا.

أكمل الفرَّاش طريقه محييًا باقي الضباط المتوافدين على

القسم والمتجهين إلى مكاتبهم، بينما قلت:

ـ كفاية كاكاو بقى!

ـ مش إنت وأبويا عليّ! كلكم باصينلي في كوباية الكاكاو!

دخل الفرَّاش واضعًا الكاكاو والماء، فالتقط قطز الكوب قائلًا:

ـ الله ينورا

ـ بالهنا والشفا يا باشوات. أي خدمة تانية؟

ـ شكرًا يا عم حمدي.

مع رحيل الفرَّاش دخل الرائد صلاح الشُّبكي، برائحة عطره الرخيص، وقميصه الفاقع لونه، وبنطلونه القماشي الذي ورثه عن أجداده، وشاربه الذي انتهت صيحته بانتهاء الثورة العرابية. وقف عند الباب قائلًا بصوته المبحوح من المعسل المغشوش:

ـ الباشوات متزفلطين في الفول والطعمية وسايبين الناس تتدبح في الشارع!

أكملت طعامي ولم ألتفت إليه، لكن قطز أجابه معترضًا:

ـ ناس مين؟! إحنا مرزوعين طول الليل وما جالناش بلاغ

واحد!

- أومال إيه البت اللي اتقتلت في ميدان طلعت حرب دي؟!

أخيرًا انتبهت إليه كي أسأله ببرود:

- بت مين؟

- اتفضلوا قدامي وإحنا نعرف بت مين.

أكمل قطز طعامه قائلًا:

- رُوح إنت، إحنا نبطشيتنا خلصت.

عقد ذراعيه القصيرتين، وقال بإيقاع سريع:

- المادة ٤١ من القانون ١٠٩ تنص على أنه يجوز تكليف الضابط بالعمل في غير أوقات العمل الرسمية، علاوة على الأوقات الرسمية، إذا اقتضت مصلحة العمل ذلك. طبعًا، ما سيادتك ابن اللوا وداخلها كوسة، لا ذاكرت ولا مققت عينيك في الكتب، جاي تاكل طعمية وتشرب كاكاو!

أخذ قطز نفسًا عميقًا محاولًا أن يتمالك أعصابه، ثم همس لي قائلًا:

- هاضربه في شنبه!

نفضت يدي قائلًا:

- اتكى ع الصبر.

* * *

يُمكن أن تعرف الكثير عن القاتل من خلال الطريقة التي اختارها لقتل ضحيته، فمثلًا:

مَن يستخدم الرصاص، فهو صاحب شخصية درامية مغرورة، وغالبًا ضحيته ابتزته أو استفزته.

من يستخدم الخنق، فهو شخص يحمل الكثير من الضغينة والاستياء المتراكم تجاه ضحيته، وفي الأغلب دافعه هو الانتقام، وفي معظم الأحيان يندم لاحقًا على فِعلته.

بينما من يختار السم، هو شخص جبان، لكنه ذكي ولا يقوى على مواجهة ضحيته.

أما أسوأ نوع من القَتَلة، فهو الذي يختار الذبح!

أشعر بالإهانة الشديدة عند رؤية شخص منحور كالمواشي، كما حدث لهذه الشابة!

كانت جثتها في وضع الجلوس في المقعد الأمامي لسيارتها خلف المقود، وقد تجلطت الدماء حول عنقها الرفيعة، ومال رأسها إلى اليمين، وارتخت يداها بجوارها، وعيناها الخضراوان مفتوحتان خلف نظارتها الكبيرة، وشعرها

البُني معقوص إلى أعلى، وتبدو على ملامح وجهها علامات الصدمة.

لقد باغتها القاتل وذبحها من المقعد الخلفي، لكن يبدو أنه كان متعجلًا، فقد خرج وترك بابه مفتوحًا، كما أنه لم يُتم الذبح إلى آخره، فالجرح يبدأ عند شريانها السباتي يسارًا ثم يتوقف بعد منتصف العنق بقليل.

جرح غير مكتمل، لكنه كان كفيلًا بإنهاء حياتها!

وقفت أتفحص منظر الجثة داخل السيارة الحمراء، وأنا أداعب تلك الليمونة ـ التي أحتفظ بها عادةً في جيبي ـ وأحركها بين أصابعي متخيلًا مشهد الجريمة، بينما انشغل قطز بتأمل البنايات الأثرية المحيطة بميدان طلعت حرب، وخاصة عمارة جروبي.

أما صلاح فقد بصق على الأرض بصورة مقززة، ثم حك أذنه بظفر إصبعه الصغيرة الذي يُطيله، ثم تكلم مع عسكري المرور بتعالٍ:

ـ ها يا ابني، مين اللي شاف القتيلة؟

ـ أنا لا مؤاخذة، استلمت النبطشية الساعة خمسة، ولاقيت باب عربية القتيلة، لا مؤاخذة، مفتوح، وفضل ييجي ساعة على ديك الحال، ولما قرَّبت عشان أشوفه، لا مؤاخذة،

مفتوح ليه، لاقيت البت مدبوحة جوه العربية.

علا صوت صلاح بلا داعٍ:

ـ وإنت إزاي ما أخدتش بالك إن البنت مقتولة من الأول يا ابني؟!

ـ ما إزاز العربية، لا مؤاخذة، مفيِّم، أشوف إزاي؟!

ـ إنت هتتفذلك بروح أمك؟!

أعلم أن العسكري لعن أجداد صلاح في سره، لكنه وقف جانبًا ملتزمًا الصمت، بينما لم يُنزل قطز عينيه عن عمارة جروبي واضعًا يديه على خصره، فسألته بفضول:

ـ فيه حاجة لفتت نظرك في العمارة؟

ـ تعرف إن العمارة دي اتبنت سنة ١٩٢٤؟!

تطلَّعت بنظري إلى العمارة الكلاسيكية ذات اللون الرملي، والنوافذ الخشبية الخضراء، والشُّرفات الواسعة، وأعمدة الإضاءة الباريسية المحيطة بها، ومقهى جروبي المغلق بواجهته ذات الفسيفساء الزرقاء.

ظل قطز ينظر إلى العمارة بتعظيم وهيبة، وأكمل مشيرًا إلى المقهى:

- في تمانينات القرن التسعتاشر، ياكومو جروبي جه مصر مع ابنه، وفتحوا الكافيه ده على الطراز الفرنساوي عشان...

- سؤال بس، إيه دخل تاريخ العمارة بالبنت المدبوحة في العربية؟

التفت إليّ قائلًا بضجر:

- ما صلاح بيعصر العسكري أسئلة، وإنت عمّال تلف حوالين العربية زي النحلة، قلت أبص على العماير العريقة اللي الزحمة بتلهينا عنها.

* * *

قطز واحد من الكثيرين الذين أجبرهم أهلهم على اختيار وظيفة تخالف طموحاتهم، فهو ابن اللواء أنور المحمدي، ووالدته ميس نجوى علوي مُعلِّمة التاريخ بمدرسة بورسعيد الدولية التي تخرج كلانا منها.

وبينما كنت أطمح أن أصبح ضابطًا مثل والدي الذي استُشهد وأنا في العاشرة من عمري، قرر قطز أن يصير زاهي حواس الثاني، بعد أن سقته أمه عشقها للتاريخ، والذي تجلى في اختيارها لاسمه «قطز»!

أُعجب سيادة اللواء بهذا الاسم المنتقى، وتخيَّل ابنه قائدًا

وزعيمًا مثل سيف الدين قطز الذي حرَّر مصر من التتار. وعاش قطز بين سخرية الطلاب وتهكمهم، لكنه كان يقول إن كل العظماء يحملون أسماءً تدعو إلى السخرية!

وهكذا، ظل قطز يحلم باليوم الذي يكتشف فيه مقبرة عظيمة كإنديانا جونز في أفلامه، وإذ بالأمر ينتهي به طالبًا في أكاديمية الشرطة، منصاعًا إلى تسلُّط أبيه الذي حرمه من طموحه لكنه لم ينزع عشق التاريخ من قلبه.

على الرغم من أن قطز أصبح ضابطًا بالإكراه، فإنه تفوَّق في الأكاديمية. وهكذا هو دائمًا، يجيد في أي مجال يدخله، ويتقن عمله ويؤديه على أكمل وجه حتى إن لم يحبه. هو شخصية لن تجد للإهمال أو الاستسلام أثرًا في قاموسها.

* * *

قُلت زافرًا:

ـ وحياة أبوك يا قطز، ركِّز عشان نخلص من صلاح!

التفت صلاح إلينا قائلًا بنبرته التهكمية اللعينة:

ـ ها يا عسل منك له؟ تفتكروا مين اللي عملها؟

أعلم جيدًا أن صلاح لم يجلبنا معه حتى نشهد على الجريمة ونتعلم من عبقريته وعقليته اللامعة، فالأبله بالكاد

يقوى على تخمين من سرق ساندويتش الفول من فوق مكتبه؛ لقد أحضرنا إلى مسرح الجريمة كي نقوم بعمله ونعطيه استنتاجاتنا وأفكارنا.

لقد اعتاد التسلُّق على أكتاف من هم أقل منه رتبة، ويكفيك أن تعاشر ذلك الوغد أيامًا لتعرف أن مبدأه في الحياة هو: «إن جالك الطوفان حط ابنك تحت رجليك». لكني أذكى من أن أحل واجبات غيري، بعكس قطز الساذج الذي أجابه مندفعًا كالطالب النجيب:

ـ معظم اللي بيختاروا طريقة الدبح بيكونوا جرّاحين أو جزّارين أو قتلة مأجورين. وأنا بارجح إن حد غني دفع فلوس لمجرم عشان يخلص من حد مضايقه. لأن مفيش إنسان عادي يعمل جريمة زي دي في العلن وسط ميدان طلـ...

قاطعه صلاح بضحكة ساخرة جعلتني أرغب في لكمه بشكل متكرر حتى أسقط عنه أسنانه الصفراء:

ـ بالعكس، ده مكان مناسب جدًّا. الدنيا ضلمة وهس هس، والعسكري نايم على روحه، وعربية مفيِّمة. دخل دبح وخرج ومحدش خد باله. السؤال هنا بقى يا مبتدئ منك له: ليه الهانم المحترمة كانت في عربيتها المفيِّمة في نص الليل تحت بيت مش بيتها؟ بوّاب العمارة بيقول إن دي أول مرَّة

يشوفها، وإنها جَت على المغرب وطلعت العمارة، وهو دخل ينام على نص الليل وكانت عربيتها لسه راكنة. كانت بتعمل إيه الهانم كل الوقت ده وبعدين نزلت بعد نص الليل؟

وجهت إليه الحديث لأول مرَّة، سائلًا إياه ببرود:

- إنت رأيك إيه؟

ثبَّت نظارة الشمس المضروبة على أرنبة أنفه، وقال بفخر لا يليق بهيئته:

- رأيي إنكم هواة! لو خدت بالك يا مبتدئ، هتلاقي إن العمارة فيها بنسيون في الدور التالت. أكيد الهانم طلعت لعشيقها وقضت معاه ليلة ظريفة ما خلصتش غير بعد نص الليل، جه بقى عيل مرقَّع من بتوع سرقة السيارات وثبتها عشان يسرق العربية الغالية الحلوة دي، فقاومته ورقعت بالصوت، قام دبها وجري. أنا هالِم كل العيال المسجلين وأنفخ أمهم لحد ما يعترفوا.

لم أرَ تحليلًا أفشل من هذا!

ذاك الأحمق الذي يظننا هواة، لم ينتبه إلى حقيبة الظهر الملقاة على المقعد الأمامي للسيارة، والتي يبرز من سَحَّابها الجانبي طرف مسطرة هندسية كبيرة، ولا يحتاج الأمر أن تكون شارلوك هولمز عصرك لتستنتج أن القتيلة طالبة بكلية

الهندسة، ربما أتت إلى منزل صديقتها لتذاكرا معًا طوال الليل، ثم حدث أمر ما جعلها ترحل.

لا أعلم ماهية السبب الذي دفعها للرحيل، ولا يهمني معرفته، لكن ما لا شك فيه أن القاتل لم يكن غرضه السرقة، لأنه اختار المقعد الخلفي وراء قائد السيارة مباشرة، مما يعني أنه يقصد الفتاة، ولو كان يقصد الحصول على السيارة تحت التهديد، لاختار المقعد الأمامي بجوارها أو لقتلها خارج السيارة لتسهل عملية التخلص من جثتها وقيادة السيارة فرارًا، خاصة أن المفتاح بالكونتاكت وأن الضحية ضعيفة البنية ومن السهل تهديدها أو ضربها أو التخلص منها بأي طريقة غير الذبح.

المجرم لم يرغب في فعل أي شيء سوى قتلها.

أؤيد نظرية قطز جزئيًا؛ أن الفاعل قاتل مأجور. ولكن ما الذي يجعل طالبة جامعية ترتدي «كروكس» أحمر وكنزة مرسومًا عليها «ميكي ماوس» مصدرَ خطرٍ لأحدهم حتى يدفع لقاتل مأجور لينهي حياتها بهذه الطريقة الشنيعة؟!

قاطع قطز تدفق أفكاري قائلًا بحماس:

- ما أظنش إن الغرض هو السرقة، اللي قتلها كان راصدها من ساعة ما طلعت العمارة، وأول ما نزلت هووووب، دبحها.

أقولك؟ ممكن تبقى مثلًا مرتبطة بواحد غني أوي وأهله حابين يجوزوه لواحدة غنية زيه أو لبنت من قرايبه، بس هو رافض عشان بيحب القتيلة ومتمسك بيها، فالعيلة قالت تخلص منها عشان...

صاح به صلاح قائلًا:

ـ إيه يا ابني فيلم «رُد قلبي» ده؟!

علَّق قطز تفسيره الأفلاطوني بين شفتيه، فهو يميل دائمًا إلى تفسير جرائم القتل بطريقة درامية تليق بشخصيته الرومانسية النابعة من أفلام الستينيات التي يحفظها عن ظهر قلب. وعلى الرغم من اتفاقي مع نظرية القاتل المأجور، فإنني بالطبع لا أؤيد فكرة أنها قُتِلَت لأنها فقيرة، فسيارتها الـ«ميني كووبر» تدحض تلك الفكرة العشوائية.

لم أتوقف عن تدقيق النظر في أركان السيارة، بينما أمارس عادتي التي اكتسبتها منذ كنت طفلًا في الثامنة، وهي مداعبة حبة من الليمون الأصفر النضر وتحريكها بين أصابعي بنمط دائري يساعدني على التفكير بصفاء ذهن.

ـ سيادة النقيب لمونة.

التفت إلى صلاح السمج الذي نبهته مرات عديدة ألا يناديني بذلك الاسم اللزج، وزفرت ولم أجبه فأعاد النداء:

ـ إنت يا ابني!

توقفت عن مداعبة الليمونة، ثم سألته بجدية:

ـ إنت عندك كام سنة يا صلاح؟

تعجَّب من السؤال، وأجاب بابتسامة صفراء:

ـ جايبلي عروسة ولَّا إيه؟!

ثم ضحك كالكلب العاوي، وأكمل بسخافته المعهودة:

ـ أربعة وتلاتين سنة يا ابني.

ـ طول ما إنت تحت الخمسين سنة، ما تقوليش «يا ابني» دي تاني!

ـ اتضايقت عشان باقولك يا ابني؟!

وصاح بأداء مسرحي مناديًا شخصًا غير موجود:

ـ هات ياض بوكيه ورد ودبدوب أحمر نصالح بيه سيادة النقيب لمونة عشان اتقمص.

عاد إلى الضحك بسخرية، فتمتمت ضاغطًا على ضروسي:

ـ عيِّل ممشش!

همس قطز:

- هييجي يوم أظرفه بوكس يوقَّع شنبه ده!

قلت بفتور:

- طب يا صلاح باشا، حضرتك مسيطر وحاطط إيدك على خيوط القضية كلها ومش محتاج اتنين هواة زينا، نتكل إحنا على الله بقى. صباحك مربى.

- اتكلوا، إنتو مفيش منكم رجا.

كمارد خرج بغتة من مصباحه، ظهر أمامنا بوَّاب عمارة خمسيني، بجلباب رمادي، يركض مذعورًا تجاه سيارة الشرطة الزرقاء صارخًا:

- يا باشا! يا باشا! الحقنا يا باشا!

زعق فيه صلاح بعصبية:

- إيه يا ابني إنت؟! بتصرخ زي البقرة كده ليه؟!

- مصيبة! مصيبة يا باشا!

أشار لنا صلاح بعجرفة قائلًا:

- شوفوا الزفت ده عايز إيه.

اعترض قطز:

- نشوف إيه؟! إحنا خلاص ماشيين، ابعت معاه الأمين.

رد صلاح بحزم:

- مش سيادتكم عايزين تترقوا وتبقوا باشوات؟ اتفضلوا شوفوا شغلكم!

تذمر قطز:

- بس إحنا من إمبارح ما...

قاطعه صلاح تاليًا ما يحفظه من قانون هيئة الشرطة كالببغاء الأجرب:

- يلتزم ضابط الشرطة بتنفيذ ما يصدر إليه من أوامر بدقة وأمانة.

زفر قطز وتمتم منهزمًا:

- الله يحرقك إنت والسطرين اللي مش حافظ غيرهم!

التفتُّ إلى البوّاب المذعور وسألته بفتور:

- موضوعك إيه على الصبح؟

- أستاذ طه عبد اللطيف، ربنا نزِّل عليه لعنته!

قال قطز وقد نفد صبره:

- إنت لسه هتشوّقنا؟! اخلص! طه زفت ده ماله؟

- اتبخر يا باشا!

٢

لقد خانه التعبير، طه عبد اللطيف لم يتبخر، بل هو...

حسنًا، أنا عاجزٌ عن وصف ما أراه بعينَي، فلو حكاه لي أحدهم لسخرت منه، ولو رأيته في فيلم لوصفته بالخيال العلمي الرخيص.

* * *

صعدنا مع البوَّاب إلى عمارة جروبي التي ظل قطز يتأمل سلالمها وأبواب شققها متحدثًا عن فن «الآرت ديكو» المعماري، فيما كان الجيران ينزلون إلى أشغالهم والطلاب إلى مدارسهم، بينما البوَّاب يقص علينا ما اكتشفه بأنفاس لاهثة:

ـ الأستاذ بيصحى كل يوم الساعة ستة، يسحب الجرنال، وينزل يفطر. بس النهارده الساعة جت سبعة والجرنال لسه على عتبة الباب. خبَّطت عليه ما فتحش. خفت ليكون جاتله غيبوبة السكر تاني، ففتحت الباب و...

قاطعت حكايته متسائلًا بجفاف:

ـ فتحت الباب إزاي؟

ـ بالمفتاح يا باشا. أصل من ساعة الأستاذ ما جاتله غيبوبة

سكر، إداني مفتاح شقته عشان يعني لو حصله حاجة أدخل ألحقه، أصل النوبة اللي فاتت كان...

اعترض قطز حديثه مستوضحًا:

- هو عايش لوحده؟

- طليقته عايشة في فرنسا مع ابنه بقالها ييجي تلاتين سنة، وعمرها ما زارته.

وصلنا إلى شقته في الدور الثاني في آخر الطرقة، لنجد الجرنال ملقى عند عتبة الباب فوق الدوَّاسة الخشنة الصغيرة.

دخلنا الصالة الواسعة التي تعج بالأنتيكات الموضوعة بعشوائية. لو رأت جدتي ذلك المنظر الفوضوي لاشتاطت غضبًا من هذا الإهمال. وفور أن دخلت غرفة النوم في آخر الممر الطويل، نسيت كل الأنتيكات والتحف المبعثرة؛ فما رأيته كفيلٌ بأن ينسيني اسمي!

فاحت رائحة مميتة من هذه الغرفة التي يغلب عليها اللون الأبيض، ذات النوافذ الكبيرة المغلقة، والستائر الحريرية المسدلة، والسجاد الإيراني دقيق الصُّنع الذي يغطي أرضيتها، وفوقه سرير غطاؤه أبيض بجواره كرسي محترق.

فوق مسند ذلك الكرسي كَفٌّ متفحمة، في إحدى أصابعها خاتم ذهبي مميز، وعلى مقعدة الكرسي المبطنة رماد منثور، وعلى طرف ظهر الكرسي رأس رجل مقطوع أكل اللهب تفاصيله، ويستند هذا الرأس، الذي تلاشت ملامحه، إلى حائط كُتب عليه بدهان أحمر وبخط اليد جملة واحدة: «الله أكبر»!

* * *

أتى فريق البحث الجنائي فصُدِموا مثلنا.

كيف يمكن لأحدهم أن يحترق إلى درجة أن يتحول إلى رماد ـ عدا كفه ورأسه ـ ولا يُمس شيءٌ في شقته سوى كرسيه الذي طالته حروق جانبية؟! ليس هذا فحسب، لا توجد أي آثار لاقتحام المنزل، فالنوافذ كلها مغلقة، والباب لم يصبه خدش، والبوّاب دخل بالمفتاح، أي أن من ارتكب هذه الجريمة يملك مفتاحًا!

كثرت علامات التعجب وتصاعدت في عقلي، لكن أكثر ما أثار تعجبي واستفساري، بخلاف مَن ارتكب الجريمة، هو كيف ارتكبها؟!

* * *

ـ ده غضب ربنا!

هكذا أجاب الجار المسن القاطن بالشقة المقابلة لشقة المجني عليه، لأقابل جملته باستنكار:

- يعني إيه؟!

- يعني واحد ملحد عمّال يتنطط على القهاوي والصالونات الثقافية، ومخصص الجرنال بتاعه للكُفر، قال إيه مفيش حاجة اسمها ربنا والكون ماشي بالفيزيا والكيميا! طب تقدروا بقى يا باشوات تفهموني بالفيزيا والكيميا، الراجل ده اتحرق واتحول لرماد إزاي؟ الجسم محتاج حرارة ما تقلش عن ١٥٠٠ درجة مئوية عشان يوصل للحالة دي، أنا كنت دكتور في كلية علوم وباقولك درجة حرارة زي دي كانت فجَّرت العمارة كلها مش جسمه بس وباقي البيت مفيهوش خدش! دي قدرة القادر.

لم تختلف أقوال المسن عن غيره، جميعهم أكدوا أن طه عبد اللطيف صاحب جريدة «المعارف» اعتاد نشر أفكاره الملحدة في لقاءاته بالقنوات التلفزيونية، بل إنه ألَّف كتابًا نشره في لبنان وبعض الدول الأوروبية ينفي وجود الله، ويؤكد أن الأديان ما هي إلا كذبة اخترعها الأولون لحكم الأمم وتغييب الشعوب.

لذا، لم أتعجب حين أقسم الجميع، من بوّاب العمارة حتى

أستاذ الجامعة المقيم فيها، أن ما حدث لطه ما هو إلا انتقام الله العزيز الجبار.

انتهى كلانا من استجواب الجيران، ليوضح قطز تطابق أقوالهم مُعلِّقًا:

- محدش سمع صريخ، ولا شم ريحة شياط، ولا شاف دخان، ولا لمح حد غريب داخل أو خارج!

* * *

وضعت يدي عند خصري ناظرًا إلى غرفة نوم القتيل، وقد أخذوا الكرسي بما عليه من رماد ورأس محروق وكف متفحمة، ولا يزال رجال البحث الجنائي يلملمون أي أدلة، حتى أتى حسني المستكاوي - أمهر رجال البحث الجنائي - قائلًا بتوتر:

- مفيش أي مسببات للحريق، لا تسريب غاز، ولا ماس كهربائي، ولا بنزين مدلوق، ولا عُقب سيجارة، ولا شمعة، ولا حتى مركبات فسفور في الحيطان أو الدهان تسبب الحريق المنيل ده!

- طب والبصمات؟

- لسه بنرفعها، بس...

حك رأسه الكبير ثم قال:

ـ الموضوع فيزيائيًّا مستحيل! درجة حرارة الأوضة عادية جدًّا، الإزاز معليهوش بخار، مفيش أثر لهباب الحريق على أي حاجة من الحاجات البيضا اللي في الأوضة، الأوضة مليانة حاجات معدنية كانت المفروض تسيح! الراجل ده اتعرَّض لنار ما تقلش حرارتها عن ١٥٠٠ درجة عشان يتحول لرماد كده. حرارة زي دي المفروض تخلي جمجمته تتمدد أو تنفجر، لكن جمجمته سليمة! ملامحه اتحرقت، لكن لحمه ما وقعش! وحتى الخاتم الدهب اللي في صباعه ما انصهرش! إزاي يتحول لرماد وما يتبقاش منه غير كف وراس؟! من الواضح كده إن ده...

قاطعته بضجر:

ـ إوعى تقولي إنت كمان إنه غضب ربنا.

ـ ليه لأ؟ ما سمعتش عن البنت اللي حرقت القرآن فربنا لعنها واتحولت لمعزة؟ ولّا الواد...

ـ هو إنت من النوع اللي بيدخل يعمل لايكات لبوستات مكتوب فيها «تحداني يهودي أن أجمع مليون لايك»، و«لن تصدق منظر قطة تؤذن»، و«ديك يؤم المصلين»، والجو ده؟

ـ إنت بتتريق؟ هو ربنا مش قادر يولع في حد أهانه؟ إنت

مش مؤمن بقدرة ربنا؟

- يا عم إنت هتكفَّرنا؟! أنا مؤمن بقدرة ربنا وعقابه، بس زمن المعجزات انتهى، والكلام ده بيحصل في الآخرة.

- وفي الدنيا كمان، عشان نبقى عبرة لغيرنا.

قاطعه قطز متفلسفًا:

- لا مؤاخذة يعني، ما أوروبا كلها ملحدين، إشمعنى طه بالذات اللي يبقى عبرة؟!

توقف حسني قليلًا ثم كاد أن يجيب لكني تدخَّلت:

- هو ربنا يوم ما يعاقب حد هيكتب على الحيطة الله أكبر؟! الموضوع فيه لعبة.

- طب اتفضل يا سيادة النقيب فسرهالي!

نظرت حولي ثم سألت قطز:

- البوَّاب لسه بره؟

- في الصالة، والعسكري عينه عليه.

خرجنا من الغرفة فهمست لقطز مستعجبًا:

- لما أذكى واحد في فريق البحث الجنائي بيفكر كده، الناس اللي على قدها هتقول إيه؟!

- إحنا لبسنا قضية حلزونية. منك لله يا صلاح!

* * *

اتجهنا إلى البوّاب المتوتر الذي انتفض من مقعده فور أن رآنا نقترب منه، لكني جلست أمامه عاقدًا أصابعي، وقائلًا بنبرة جافة حازمة:

- مين اللي عملها؟

- ربنا يا باشا، ده عقاب.

- ماشي، ماشي، ده عقاب ربنا. مين بقى اللي طبّق عقاب ربنا على طه؟

- والله ما أعرف يا باشا. الناس كلها شايفين إن أستاذ طه كافر ولازم يتطبّق عليه الحد. لو كان مات مدبوح ولّا مقتول كنت هاقولك تلاقيه عيّل متشدد، لكن الموتة دي مش من فعل بشر.

فرد كفيه في وجهي مقسمًا:

- والعَشَرة دول، دي قدرة الله وحده.

زفرت، ثم فركت عينَي قائلًا بمَلل:

- طه ده بيعمل إيه في يومه؟ بيروح فين؟ بيقابل مين؟

ـ بيصحى الساعة ستة، ياخد الجرنال وينزل يفطر في جروبي، بس لما جروبي قفل بقى بيروح المطعم القديم ده اللي كله إزاز اللي في الشارع هنا و...

قاطعه قطز:

ـ مطعم ريش؟

ـ أيوه يا باشا. بيفطر ويروح مكتبه في شارع التحرير، بعدها يتغدى ويرجع ينام من الساعة ستة للساعة تمانية، وعلى تسعة كده بينزل يقعد على القهوة اللي ورا مطعم ريش أو يروح صالون المتثقفين وما يرجعش قبل الساعة حداشر أو اتناشر بالليل عشان ينام على طول.

ـ فيه حد بيتردد هنا على بيته؟

ـ عمري ما شُفتله قريب ولا حبيب، ما كانش فيه غير أخوه وده مات من ييجي عشر سنين.

سأله قطز متثائبًا بطريقة لا تليق بهيبة التحقيق في قضية تفحُّم شخصية عامة:

ـ فيه أي حاجة غريبة حصلت إمبارح؟

ـ أبدًا يا باشا. أنا قمت من مكاني الساعة اتناشر، والأستاذ وصل على حداشر وكان شكله مبسوط أوي، ده حتى كان

ماشي يدندن للست.

- فيه حد تاني معاه مفتاح الشقة دي غيرك؟

- الله أعلم، بس...

صمت مفكرًا، ثم اضطرب فقال:

- هو سعادتك شاكك فيَّ يا باشا عشان معايا المفتاح؟ طلاق تلاتة ما عملت حاجة، وربنا المعبود أنا في العمارة دي بقالي خمسة وأربعين سنة ما حد شاف مني حاجة وحشة، وحتى الأستاذ نفسه بالرغم من كُفره كنت حاطه فوق راسي، أنا باعامل الناس كلها واحد و...

- ما خلاص يا عم! سد بُقك ده!

نهضت قائلًا، وقد رافقني قطز:

- تعالَ نبص على الأماكن اللي بيروحها، يمكن نطلع بأي معلومة حزينة!

* * *

بدأنا كما اعتاد طه أن يبدأ يومه، فاتجهنا إلى مطعم ريش سيرًا على الأقدام.

كان مطعمًا عتيقًا يشبه صندوقًا زجاجيًّا كبيرًا موضوعًا في

إطار خشبي عملاق تنسدل على جوانبه ستائر بيضاء. فور أن تدخله، ستلفت نظرك تلك الملصقات القديمة، وعبارة «اللي اختشوا ماتوا» المكتوبة بالأحمر بجوار مجموعة كبيرة من الإعلانات عن ندوات وجلسات ثقافية متنوعة.

وقف قطز عند الباب متأملًا السلم النحاسي الجانبي، ثم تمتم لي قائلًا:

ـ تعرف إن أيام ثورة ١٩١٩ كانوا عاملين مطبعة هنا بتطبع المنشورات اللي...

قاطعته بنفاد صبر:

ـ تعرف تسكت!

استقبلنا عند الباب جرسون داكن البشرة، يرتدي قميصًا أبيض وصديريًا أسود و«بابيون» أنيقًا.

اقترب منا قائلًا بملامح متحفظة:

ـ صباح الخير.

قلت بهدوء:

ـ النقيب نوح الألفي من المباحث الجنائية.

ارتبك الجرسون وقال:

- خير سعادتك؟

- أنا باسأل عن الأستاذ طه عبد اللطيف و...

- هو لسه ما جاش بس...

قاطعه قطز:

- مش هييجي. طه اتقتل.

انقبضت ملامح الجرسون الكهل، وجحظت عيناه وسط هذا الكَم المهول من التجاعيد حولهما، وقال:

- يا حول الله، الله يرحـ... ولَّا بلاش.

- ما تجوزش عليه الرحمة ولَّا إيه؟

- آديه قابل ربنا اللي كان بينكره. مين اللي عمل فيه العملة دي؟

- هنعرف. هو جه هنا إمبارح؟

- أيوه، كان متعود ييجي كل يوم يفطر مع ضيوفه.

- يطلعوا مين ضيوفه دول؟

- بهوات من اللي بيطلعوا يزعقوا في البرامج.

- يعني بييجوا يفطروا سوا وبس؟ ما بيتكلموش في

حاجة؟

- مش بيتكلموا كتير. بيسلمهم وبيستلم منهم جوابات، وبعدها يفطروا ويمشوا.

سأله قطز:

- جوابات إيه؟

- ما أعرفش. أظن حاجات تخص الجرنال بتاعه. هو صاحب جرنال كبير ورثه عن أبوه. أنا كنت تملي أقراه بس بعد ما بقى بيخوض في دين الله بطلت أجيبه. حاكم أنا أعرف الأستاذ من أيام ما كان بييجي مع أبوه، كان راجل يتحط على الجرح يطيب، والعيبة ما تطلعش منه، لكن نقول إيه، يخلق من ضهر العالم فاسد!

استفهم منه قطز:

- إنت شايفه وحش أوي كده؟

- الأستاذ طه كان كويس لحد ما سافر فرنسا، حاله اتغير، ولما رجع بقى يقول حاجات غريبة اتعلمها من بلاد بره، ومشي في خط الكُفر لحد ما غاص في الوحل، وبقى كل ليلة يدب خناقة على القهوة اللي ورانا بسبب أفكاره دي.

- اتخانق إمبارح مع حد معين؟

ـ ما أعرفش، أنا ما باقعدش على قهاوي.

ـ طب إمبارح كان معاه حد على الفطار؟

ـ آه، الراجل اللي اتخانق معاه ده في التلفزيون.

ـ راجل مين؟

ـ رجل الأعمال ده اللي اسمه منصور الباز. طه كان طالع أستغفر الله العظيم بيدافع عن حقوق الشواذ، وقال إيه من حقهم يتجوزوا رسمي زي ما بيعملوا في أمريكا. جه الأستاذ المحترم منصور الباز متصل على الهوا ومسح بكرامته الأرض، وقاله إنت بتبوَّظ الشباب، مش كفاية بتدعو للإلحاد؟! كمان للشذوذ؟! ساعتها أنا اتبسطت أوي منه، بس لما لاقيتهم تاني يوم سمن على عسل وبيفطروا مع بعض وبيضحكوا، عرفت إنها تمثيلية، ولعنتهم هم الاتنين.

ـ كانوا بيتكلموا عن إيه؟

ـ أنا سمعي على قدي، بس الظاهر في الأول كانوا شادِّين في الكلام، والأستاذ منصور بيكلمه من تحت ضرسه، بعدها اتصالحوا وهزروا واتعازموا كمان على مين اللي هيدفع.

حككت ذقني قائلًا:

ـ وطه سلمه أو استلم منه أي ظرف؟

- لأ، فطروا ومشيوا.

* * *

قررنا أن نقسِّم أنفسنا.

ذهب قطز إلى مكتب طه في شارع التحرير ليتحقق من أمر الأظرف التي اعتاد أن يسلمها ويستلمها، بينما ذهبت إلى المقهى الذي كان يومًا ما حديقة شاء القادر أن تتحول إلى شارع ضيق مبلط تتراص فيه الكراسي والطاولات البلاستيكية الزرقاء التي توضع عليها المشروبات.

تحدثت مع صبي المقهى عن طه، ولم يقل ما يخالف كلام الجرسون في مطعم ريش، لكنه أضاف أمرًا مهمًّا:

- إمبارح الأستاذ عزت اتعصب عليه و...

- عزت مين؟

- شاب ملتزم بتاع ربنا ساكن في العمارة دي.

وأشار إلى العمارة الموجودة في آخر الممر.

- شد إمبارح مع الأستاذ عشان هو زودها حبتين. عزت جادله بالتي هي أحسن، بس هو رد عليه ببرود وفضل يستفزه، فكان هيمد إيده عليه وبقى يقوله هتحل عليك لعنة الله، لكن إحنا طبعًا فرقنا بينهم يعني والموضوع خلص على

خير.

ـ عزت ده اتخانق مع حد قبل كده؟

ـ لا يا باشا، ده في حاله. دي حتى أول مرَّة أشوفه متعصب كده. بس يا بيه ما تدقش، أستاذ طه كل ليلة يدب خناقة مع حد، بيقعد معاه خمس ست عيال أستغفر الله العظيم زيه كده، والباقي مش راضيين عن كلامه. أنا قلت لصاحب القهوة ديك النهار ما يخليش الأستاذ ييجي يقعد هنا تاني عشان المشاكل اللي بيعملها وعشان بركة المكان ما تِقلّش، بس هو قالي يا واد يا كنكة ما دام بيدفع حسابه يبقى كل واحد حر.

صمت ناظرًا في اتجاه العمارة التي أشار إليها قائلًا إن عزت يسكن فيها، فعلّق الصبي:

ـ بتفكر إنت في عزت يا باشا، صح؟

لم أعلِّق، فأردف هو:

ـ مستحيل. مش بس عشان هو شاب عاقل ووحيد أبوه وأمه، لكن كمان عشان إمبارح قبل حتى ما الأستاذ طه يرجع بيته، عزت وقع على الرصيف فرجله اتكسرت وإحنا نقلناه على المستشفى.

* * *

لم يكن يكذب، لقد كُسرت ساق عزت بالفعل.

استقبلتني والدته وهي تظن أنني زميل له أتى ليطمئن عليه.

لم أكن زائره الوحيد، ففي هذه الشقة الواسعة التي تراصت على حوائطها آيات قرآنية ومسابح عملاقة، وتوسطت طاولة طعامها مبخرة أنيقة تفوح منها رائحة بخور خانقة، وجدت ثلاثة شباب آخرين تقترب أعمارهم من الثلاثين. كانوا على وشك المغادرة بعد أن اطمأنوا على صديقهم السمين الراقد في سريره وبجواره منضدة عليها مصحف ومسبحة إلكترونية.

قدمتني والدته إليه على أنني صديقه، على الرغم من أنني لم أقل ذلك، لكنه رحب بي بابتسامة قائلًا:

ـ أهلًا وسهلًا، شرفت. تشرب إيه؟

ـ شكرًا.

ـ لأ، لازم تشرب حاجة لحد ما والدتي تحضر الغدا.

ـ ألف شكر.

انتظرت حتى غادرت والدته، ثم أكملت:

- في الحقيقة أنا جاي أسألك سؤالين.

- سؤالين إيه يا أخ...؟ اعذرني وجهك مش مألوف، حضرتك معانا في الجامعة؟

- لأ، أنا النقيب نوح الألفي من المباحث الجنائية.

تغيرت ملامحه واضطرب قائلًا:

- مباحث؟! خير؟!

- أنا جاي أسألك عن اللي حصل مع طه عبد اللطيف.

- قصدك على الخناقة؟ أنا ما مديتش إيدي عليه، مسكت نفسي على آخر لحظة وقلت والكاظمين الغيظ وده برضو من سن أبوك وما يصحش. بس الراجل ده قادر على بث الفتنة زي ما الحية بتبخ سمها!

- عشان ملحد؟

- أنا مش معترض على إنه ملحد، ده شيء بينه وبين ربه، أنا معترض على إنه بيدعو الجميع للإلحاد علنًا. هي العقول ناقصة ضياع وتشتت أكتر من اللي هي فيه؟!

- وطبعًا ده دافع كافي لقتله.

انتفض متأوهًا مستنكرًا الخبر الذي أعلنته له:

ـ قتله؟! هو مات؟

ـ طه مات محروق في شقته، وعشان...

ـ وعشان أنا متدين وملتحي سيادتك استنتجت إني ورا قتله وجاي تلبسني التهمة في بيتي!

ـ أنا مش جاي ألبسك حاجة. إنت اللي اتخانقت معاه وهددته والكل يشهد بده.

ـ والكل برضو يشهد إن رجلي اتكسرت واتنقلت للمستشفى قبل ما الأستاذ يروَّح.

ـ جايز إنك تروح المستشفى، وتحرض غيرك على إنه ينفذ و...

قاطعني بنبرة متعالية لا تتناسب مع خديه الممتلئين بشكل طفولي:

ـ باشا! لما يبقى معاك دليل ضدي غير دقني، ابقى تعال اقبض عليَّ، آديك عرفت المكان!

سحب مصحفه المجاور وفتحه، وهمَّ ليقرأ فيه وهو يتمتم:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل.

* * *

لم أعد قادرًا على البقاء مستيقظًا أكثر من هذا.

حل العصر علينا، فجلسنا في سيارتي «النوبيرا» الحمراء كثيرة الأعطال، نجمع كل ما توصلت إليه أنا وقطز من معلومات، نافثين دخان سجائرنا.

قال قطز:

ـ كل اللي شغالين في جرناله نفس دماغه، شايفين إننا عايشين في مجتمع جاهل ومتخلف ومتطرف، وإن نابغة زي طه كان مستهدف بسبب أفكاره المستنيرة، وإنه شهيد الانفتاح الفكري.

نفثت دخاني مطقطقًا فقرات عنقي المتيبسة وأنا أسأل قطز:

ـ ما لقيتش حاجة مهمة في مكتبه؟

ـ كلها كتب فلسفة عن الإلحاد وأفكار سياسية ومسودات مقالات.

ـ مفيش خزنة ولا درج مقفول ولا...

ـ مفيش غير لابتوب عليه باسورد بعته للشباب عندنا يفتحوه. بس عايز أقولك الصحافة شغالة على ودنه، مفيش

حد في مصر دلوقتِ مش بيعمل شير للخبر ويقول الله أكبر!

ـ إحنا وصلنا لإيه لحد دلوقتِ؟

ـ طه له بدل العدو ألف، بسبب...

ـ بسبب إنه ملحد. يعني دايرة البحث بتاعتنا في المتطرفين اللي عندهم القدرة إنهم يدخلوا شقته ويطلعوا منها من غير ما يقتحموها. بس إزاي فحموه كده؟ وبعدين، إيه حوار الجوابات اللي قال عليها الجرسون دي؟

ـ ما أنا سألت البت السكرتيرة قالتلي إن هي دي طريقة طه في استلام الصور أو الأخبار من اللي شغالين معاه، وإنه دايمًا بيدي فلوس في الأظرف.

ـ مش راكب في دماغي الهري ده.

ـ ولا أنا. العملية مقفلة من كل حتة يا نوح. البيت مفيهوش غير بصمات البوّاب وطه نفسه.

ـ يبقى البوّاب اللي عملها.

ـ الناس شهدت إنه فضل على القهوة اللي في شامبليون من ساعة ما ساب العمارة في نص الليل لحد أذان الفجر، وبعدها صلى جماعة ونام على روحه في المسجد بعد الصلاة لحد ما الناس صحوه، وراح العمارة وزّع الجرايد ونضف

العربيات ومسح السلم، وبعدها اكتشف الجريمة. أنا عصرته أسئلة و...

ـ أومال مين يعني اللي عملها يا قطز؟! أبويا طلع من قبره ولع في سي طه ورجع تاني؟!

ـ هدي أعصابك، مش ناقصين توتر. بتوع المعمل شغالين شغل من نار، وأكيد النتايج اللي هتطلع هتوصلنا لحاجة. بس عارف إيه اللي هيجنني؟

ـ انجز.

ـ أنا سمعت عن موتة زي دي قبل كده، كونتيسة إيطالية جسمها اتحول لرماد وما اتبقاش منها غير تلات صوابع، وبرضو مفيش حاجة ولعت في قصرها.

ـ قطز، انزل من العربية!

ـ باتكلم بجد. ماما حكيتلي الموضوع ده قبل كده، بس مش فاكر كان اسمها إيه.

طرقع قطز أصابعه قائلًا:

ـ هو أنا واجع دماغي ليه؟ ما تسألنا أختك، أكيد تعرف عن تاريخ إيطاليا أكتر مني وهتفيدنا.

ـ عارف إيه اللي هيفيدني بجد؟

أخمدت سيجارتي مردفًا:

- ساعتين نوم.

- نوم إيه دلوقتِ يا نوح؟! إحنا ماسكين قضية بنت ستين في سبعين والعيون كلها علينا وإنت تقولي أنام؟!

- فُكك. أنا مطبق من أول إمبارح.

- براحتك. أنا مش هانام غير لما على الأقل ألاقي خيط نمشي وراه.

- هنلاقي الخيط، وهنمسك القاتل، وهيحل السلام العالمي، بس أنام الأول.

٣

صعدت سلالم العمارة رقم ٦٠ المطلة على النيل في جاردن سيتي، حيث أسكن مع جدتي منذ أن تزوجت أمي من ذلك الطبيب النفسي اللزج.

فتحت الباب الخشبي الثقيل ذا الشُّراعة الزجاجية، فأتاني صوت الكلبين ينبحان في المدخل.

دخلت فشممت رائحة الفراولة التي تعصرها جدتي إحسان الدمرداش البالغة من العمر سبعين عامًا، والتي لا تسمع سوى أغاني «إديت بياف» التي تنبعث موسيقاها الباريسية من أسطواناتها السوداء الدائرية في «الجرامافون» النحاسي الذي أهداه لها جدي الراحل أيام خطبتهما، وقد اشترت باقي الأسطوانات من فرنسا في أثناء بعثة التفوق التي حصلت عليها مع مجموعة من دارسي الحقوق إلى جامعة «السوربون»، لتعود بعدها وقد صارت أستاذ القانون الجنائي بجامعة القاهرة، إلى أن تُوفِّي جدي وتركنا مع كلب «جيرمن شيبرد» يُطلق عليه «روي» وكلبة «جريفون» فرنسية بيضاء تشبه علبة المناديل، سمَّتها جدتي «لولو».

كانت «لولو» الفرنسية تناسب شخصية جدتي الفرانكفونية بشدة، فإحسان لا تُتم جملة دون أن تستخدم مصطلحات

فرنسية لا أفهمها، وتتعطر دائمًا بزجاجة «شانيل ٥»، وتقدس تصفيفة شعرها الفرنسية وصبغتها بدرجة الأحمر الكرزي.

لا ترتدي جدتي سوى الأثواب والبلوزات من الشيفون والتنانير الراقية، ولن تجد في خزانتها بنطلونًا واحدًا، بل هناك مجموعة من القبعات الأوروبية المنتمية إلى حقبة الخمسينيات المنصرمة، ومعظم ملابسها ـ إن لم تكن كلها ـ مزركشة بطبعة النمر البُنية.

أخذت «لولو» تقفز أمامي وتستند بقدميها الأماميتين على ساقي كالملبوسة، وهي تنبح فور أن دخلتُ صالة البيت كأنها تعلن لجدتي عن وصولي.

ـ إنت جيت يا نوح؟

ـ آه يا تيتة.

تخطيت الصالة ذات الصالون الفرنسي الأنيق والتحف المرصوصة بنظام، التي انشغلت الخادمة فكيهة بتنظيفها بالماء والليمون بحرص.

اتجهت إلى المطبخ حيث كانت جدتي تقف أمام الخلاط تمارس هوايتها المفضلة في جمع الفاكهة وعصرها وتعبئتها في أكياس بلاستيكية ثم إلقائها في المجمّد لتنساها لشهور، فتلتقط رائحة الثوم والبقدونس واللحم النيئ، ثم تراها

مصادفة فتخرجها وتعمل على فك تجميدها كي أشربها أنا بما تحمله من عبق روائح متداخلة غصبًا وافتراءً.

أسندت رأسي على الثلاجة التي امتلأت بمجسمات ممغنطة لبرج إيفل وقوس النصر وعلم فرنسا وبضع كلمات فرنسية، وقلت:

- فيه إيه يتاكل يا سونة؟

استدارت بوجه أسود متفحم جعلني أجفل متمتمًا:

- بسم الله الرحمن الرحيم!

- إيه يا ولد؟! شُفت عفريت؟!

- إيه اللي على وشك ده؟

- ماسك القهوة.

صبت الفراولة من الدورق في كوب زجاجي وناولته لي، فقلت معترضًا:

- مش عايز عصير. أنا جعان.

- الأكل بيجهز.

نظرت حولي متفحصًا المطبخ السيراميكي الذي تلمع زواياه، وقلت:

ـ أكل إيه اللي بيجهز؟! أنا مش شايف حلة واحدة على النار!

ـ هيجهز دلوقتِ، خد دش ونام شويتين هتصحى تلاقي الأكل جاهز.

ـ أنا عايز آكل دلوقتِ!

ـ «chéri»، ده مش بنسيون عشان تاكل وتنام فيه وبس.

ـ هو أنا نسيت أقولك؟ مش هم اخترعوا البيوت عشان ناكل ونشرب ونرتاح فيها، مش عشان نخترع الذرة.

زفرت لتذكرني ممن ورثت قلة صبري، ثم أخذت تتمتم وتسبني بالفرنسية.

نظرت في ساعتها الذهبية الرقيقة التي لا تخلعها إلا عند الاستحمام، ثم اتجهت صوب الحمَّام وبدأت تفرك وجهها بشكل دائري لتزيل ماسك القهوة وهي تصفر ببال رائق.

استسلمت متجهًا إلى غرفتي التي نظفتها فكيهة وفاحت منها رائحة الليمون.

وفور أن خلعت حذائي وسترتي، وجدت نفسي أغوص في نوم لا سلطان لي عليه.

* * *

هي ذكرى أكثر من كونها حلمًا:

أقف في كهف مظلم، في سقفه فجوات يتخللها على استحياء ضوء خافت، ثم أجد مجموعة من البدو متكورين في زاوية قصية يرتعشون.

أرى ملكًا فرعونيًا يطوف حولهم، وفارسًا محاربًا على حصانه الأسود يتجول في دهاليز الكهف.

أشاهد نفسي طفلًا في الثامنة من عمره، أمامي شابة بدوية آية في الجمال، ذات بشرة رائقة، وعينين واسعتين، وأنف دقيق، وشفتين مكتنزتين، وشعر أسود طويل ينسدل حتى خصر دقيق يعلوه ثوب مطرز.

تجثو البدوية الحسناء على رُكبتيها، وتفتح لي قبضتها لتريني ليمونة صفراء كبيرة نضرة، ثم تهمس لي بابتسامة مشجعة:

ـ لو رايد الأمان، شُق اللمونة يا إنسان، وانطق اسمك، بعد ذكر السلام.

آخذ منها الليمونة وأشقها نصفين، فيلتفت إليَّ فجأة كل الموجودين، فأقول لهم بفخر:

ـ السلام عليكم، أنا نوح الألفي.

فيبتسمون جميعًا ويهزون رؤوسهم مجيبين في صوت واحد:

ـ وعليكم السلام!

* * *

شعرت بيدين توضعان على عينَي بغَشامة، وإصبع تُدس في فمي بشَقاوة، فاستيقظت من حلمي منتفضًا لأجد التوأمين العفريتين ابنَي شقيقتي الكبرى نادية يلعبان في فمي وعينَي التي تظل مفتوحة في أثناء نومي.

ـ يا ولاد الـ...

ركضا مقهقهين خارج الغرفة، فجلست على الفراش المقابل للنافذة المطلة على النيل، وقد خيَّم الظلام على الأفق وتراقصت أنوار البواخر العائمة في النهر.

فركت عينَي، ومسحت لعابي، ثم تفقدت هاتفي. قطز لم يتصل بعد!

خرجت من الغرفة على نباح «لولو» المزعج، فصحت في اتجاه المطبخ:

ـ ما تسكِّتي علبة المناديل دي يا تيتة!

اصطدمت في الصالة بأختي نادية التي لا تشبهني في

شيء سوى العينين العسليتين والغمازتين الواضحتين، فيما عدا ذلك فهي شخصية متسلطة، قليلة الصبر، حادة المزاج، على النقيض من زوجها طارق عثمان الذي وُلد وتربَّى في الكويت ثم عاد إلى مصر لدراسة الصيدلة في جامعة عين شمس، بينما درست أختي في كلية الألسن قبل أن تُعيَّن مُعيدة تدرِّس مادة «تاريخ الأدب الإيطالي» في قسم اللغة الإيطالية، وقد تزوجا فور أن أنهيا دراستهما ليكونا زوجين مختلفين كل الاختلاف، لكنهما منسجمان كل الانسجام!

الاختلاف بينهما لا يتوقف عند حدٍّ أنه فارع الطول وهي شديدة القصر، أو أنه صاحب بشرة داكنة وهي ذات بشرة فاتحة، بل يتجلى اختلافهما الكبير في كونه شديد الصبر، طويل البال، بارد الأعصاب، دبلوماسي الردود، مبدأه هو «حاضر بتريَّح»؛ ويظهر ذلك حين ينفذ تعليمات وأوامر نادية متجنبًا سَورات غضبها القادرة على جعل حياته أسود من أيام النكسة، ويتجلى الاختلاف أكثر في طريقة تربية أطفالهما الثلاثة: تالا، ذات الأعوام الخمسة، والتوأمين يحيي (على اسم والدي الشهيد) وياسر، ذوَي الأعوام الثلاثة؛ فنادية تضخِّم كل الأمور فيما يتعلق بصحة الأطفال وتفوقهم وتميزهم، وتصيح بهم كالمجنونة إذا أخفقوا في أمر أو تعدوا حدود اللياقة التي لا يفهمونها بعد، بينما طارق يظل يتابع الأفلام الوثائقية على «ناشيونال جيوغرافيك»

و«نتفليكس» ببالٍ رائق.

مرت سبعة أعوام على زواج نادية وطارق، وما زلت لا أرى قاسمًا مشتركًا بينهما سوى أن كلًّا منهما يرتدي نظارة كبيرة، ويحب صوت «بافاروتي» الأوبرالي، ويدمن القرفة بالحليب، وأنهما معًا يؤلفان روايات بوليسية مشتركة حازت نجاحًا لا بأس به.

- كنت لسه هاصحيك.

قالتها نادية وهي تخرج من المطبخ بأطباق الكسكسي بالخضار، ولحم الضأن.

- عيالك الشياطين كانوا بيلعبوا في خِلقتي!

جحظت عيناها، وتطاير منهما الشرر في اتجاه الطفلين اللذين يحاولان امتطاء «روي» المستسلم لهما وكأنه حصان، ثم صرخت فيهما:

- بتعملوا إيييييه؟! أنا مش قلت نقعد محترمييييين؟! تعالوا هنااااا!

خرجت تالا، التي ورثت من أمها غمازتيها ومن أبيها بشرته الداكنة وشعره الكثيف، من المطبخ، وركضت نحوي بحماس طفولي يحرك في داخلي غريزة أبوية لا تصحو إلا في

وجودها الملائكي:

- نووووووووووح!

حملتها عن الأرض وقبّلتها مداعبًا ضفيرتيها المشدودتين:

- حبيبة قلبي، مربى بالتوت يا ناس!

ضحكت ثم همست في أذني:

- جِبتلي الحلويات اللي قلتلك عليها؟

أجبتها هامسًا كمُهرّبي الجمارك:

- جِبتها. الجو أمان عندك إنتِ؟

- أمان.

قالتها غامزة، بينما صاحت نادية:

- بتتوشوشوا على إيه؟

قبّلت تالا ثم أنزلتها على الأرض قائلًا:

- خليكِ في حالك!

لو علمت نادية أنني أشتري لأطفالها الحلوى التي تمنعها عنهم لشنقتني في ميدان عام!

خرجت جدتي حاملة صحنًا كبيرًا من لحم الضأن، وقالت

لنادية:

ـ ما تنادي على جوزك البُرطة ده يشيل معانا!

صاحت نادية بصوتها الحاد:

ـ طاراااااااااااااق.

ـ حاضر.

خرج طارق من غرفة المعيشة في ثوانٍ، بابتسامته البلهاء، والتيشيرت البولو الأسود الذي لا يرتدي غيره، والكروكس الرمادي وتحته الشراب الصوفي الأبيض، فنظرت جدتي «الفاشونيستا» إلى قدميه قائلة باستنكار:

ـ البتاع البلاستيك اللي بتلبسوه ده بيحرقلي دمي!

ـ يا تيتة ده حاجة في الإنجاز، أنا ساكن في الشارع اللي قدامك، هاجيلك بتوكسيدو يعني؟!

قالت من تحت ضرسها:

ـ أهو ده اللي إنت فالح فيه، الاستظراف، هات باقي الأطباق، نوح على لحم بطنه من الصبح.

* * *

تجمَّعنا حول السفرة، ولم يتوقف التوأمان عن تبادل

القَرص والرَّكل تحت ستار المفرش، وتالا تسألني كل دقيقة عن موعد تسليم البضاعة المهرَّبة، وجدتي تأكل من طرف الشوكة بأناقة، بينما طارق يلتهم الكسكسي بنهم، «فتَزغُده» نادية بمرفقها وتقول بصوت يشبه الفحيح:

- بالراحة! مش آخر زادك!

التفتت إليَّ نادية بحماسٍ لا تراه يلمع في عينيها إلا حين تتحدث عن جرائم القتل، وقالت:

- شُفت يا نوح خبر موت طه عبد اللطيف؟

- شُفته؟! دا أنا اللي متدبِّس في القضية!

أمسكت نادية وطارق عن الطعام، وتبادلا النظرات كالمتآمرَين، وإذ بطارق يقول لي باسم الثغر متحمسًا حماس البُلهاء:

- قول واللهِ!

- إنت عبيط ولَّا إيه؟!

قالت نادية بحماس مشابه:

- إنت مش فاهم، دي علامة من عند ربنا. أنا وطارق كنا بنفكر نكتب رواية عن الموت بالـ«SHC».

- الموت بإيه؟!

أجابني طارق بطريقة علمية:

- الاحتراق الذاتي البشري، دي حالة نادرة جدًّا. في خلال القرنين اللي فاتوا، ما اتسجلش غير حوالي مِيتين حالة بس ماتوا بسببها، زي طه كده.

تركت الطعام، وقلت بفضول:

- وضحلي.

- الموضوع ببساطة إن واحد بيموت محروق بدون ما المكان المحيط به يتأثر. الإنسان بيكون هو مصدر الحريقة، هو الفتيل، بيفضل يتحرق بشكل عمودي لحد ما يبقى رماد، وده بسبب إن الدهون المتخزنة في جسمه بتبقى عاملة زي البنزين اللي مستني شرارة صغيرة تولعه، ومفيش شيء بيتحرق غير الإنسان نفسه أو أي شيء يلمسه وهو...

- اللي إنت بتقوله ده كلام علمي يا طارق، ولّا فانتازيا بتألفوها؟!

أسرعت نادية مدافعة:

- طبعًا كلام علمي. لو دوّرت على النت عن ظاهرة الاحتراق الذاتي البشري، هتلاقي قصص ناس حقيقية، زي الفارس

بولونوس فورستيوس لما شرب كمية كبيرة من النبيذ وبعدها ولّع سيجارة واحدة فاتحرق، والأرملة ماري ريزر، والكونتيسة الإيطالية كورنيليا دي باندي اللي اتحولت لرماد وما اتبقاش منها غير...

أسرعت بمقاطعتها قائلًا:

ـ تلات صوابع! قطز حكالي عن الحوار ده!

ـ الموضوع مثير أوي للاهتمام، ومحدش كتب عنه قبل كده.

ـ لأنه حاجة ما يستوعبهاش العقل!

ـ عندك حق. في العصور الوسطى كانوا بيفسروا الموضوع ده على إنه سحر أسود من كُتر غرابته، ودلوقتِ...

قاطعتها ساخرًا:

ـ دلوقتِ بيقولوا إنه غضب ربنا على طه الملحد الزنديق!

علّق طارق:

ـ اللي يشوف الموضوع من بعيد هيفتكر كده، خصوصًا إنه قبلها بييجي أسبوع طلع في التلفزيون مع شيخ وقاله لو ربنا بتاعك ده متضايق من اللي باقوله خليه يرد عليَّ بنفسه!

قالت جدتي بعد صمت طويل كانت تتابع فيه الحديث بترفُّع:

ـ وأهو ربنا ردا!

التفت إليها مستغربًا:

ـ إنتِ فعلًا مصدقة يا سونة إن ده غضب ربنا؟!

ـ واحد يموت موتة بشعة زي دي، وما يلاقيش اللي يتعاطف معاه، ولا اللي يدعيله بالرحمة، أظن إن ده أكبر غضب من ربنا ممكن ينزل على حد!

فكرت في كلامهم، ثم وجهت سؤالي إلى نادية وطارق:

ـ لو افترضنا إن الكلام ده صح، وإن الجسم هو اللي بيتحرق وبيعمل الحرارة دي، فإزاي إيده وراسه يفضلوا سُلام؟

أجابني طارق:

ـ غالبًا الإيد والرِّجل بيتصابوا بحروق وبينفصلوا عن باقي الجسم، لكن مش بيتحولوا لرماد عشان دول أقل منطقتين فيهم دهون.

ـ يعني الدهون والتُّخن شرط أساسي للموتة دي؟

- معظم اللي بيموتوا بالطريقة دي بيبقوا تُخان، وكبار في السن، وبيشربوا كحول كتير، ومدخنين، وناموا ونسيوا السيجارة في إيدهم أو مثلًا كانت فيه شمعة جنبهم فولَّعوا.

- طب لو مفيش ده ولا ده؟

- أكيد فيه حاجة تانية. لازم يكون فيه شيء، حتى لو شرارة من أي جهاز كهربائي أو موبايل مثلًا، سبِّب حرق الدهون والأعضاء الداخلية ومن بعديه يدوب اللحم و...

صاحت جدتي ممتعضة:

- إيه القرف اللي بتقولوه على الـ«table» ده! كلوا وإنتو ساكتين!



***

جلست مع نادية وزوجها اللذين أسهبا في الحديث عن هذه الظاهرة، ثم أسرع طارق إلى شقته ليحضر اللابتوب، وجلسنا نحن الثلاثة نتناقش في الأمر.

عرضا عليّ كل ما جمعاه من معلومات وأخبار عن حوادث مشابهة، ثم وضعنا معًا قائمة بالعلامات المشتركة بينها وأسباب حدوثها.

بعد مُضي بضع ساعات من البحث الموسَّع، اتصلت بقطز

الذي أجابني بصوتٍ يمتلئ نعسًا وإرهاقًا، فسألته:

ـ إنت ما روّحتش كل ده؟!

ـ لأ. مستني حد يعبّرني من البحث الجنائي.

ـ طب أنا تقريبًا حطيت إيدي على خيط كده، فيه حاجة اسمها «أثر الفتيل».

ـ مش فاهم!

ـ الكونتيسة اللي إنت قلت عليها دي ماتت بحاجة اسمها «الاحتراق الذاتي البشري»؛ ظاهرة بتخلي الإنسان عامل زي الفتيل، يتحرق بشكل عمودي لكن ما يحرقش اللي...

تثاءب كالدُّب قائلًا:

ـ أنا مش فاهم حاجة!

ـ ما إنت بقالك يومين صاحي فأكيد مش هتفهم حاجة. بص، هاديك كام حاجة تسأل عنها بتوع البحث الجنائي وروّح نام وأنا هاكمل.

أمليته بضعة أسئلة وهو ينصت ويدوِّن حتى تثاءب مجددًا بطريقة كادت تفقدني سمعي، وقال:

ـ ماشي. وإنت هتعمل إيه؟

ـ هاروح أقابل طه نفسه!



٤

أظن أنه قد حان الوقت لأخبرك بالحقيقة الثالثة عن نفسي، شريطة أن تعدني بألَّا تتعجل بالحكم عليَّ بأني مُخرِّف مخبول، وأن تكون صبورًا وتنصت إلى حدسك، فعلى الأقل إن لم تكون قصتي منطقية فهي حقيقية بلا شك.

في الثامنة من عمري، وهبني الله الحاسة السادسة.

أتذكر أن الأمر حدث خلال إجازة منتصف العام، عندما سافرنا إلى واحة سيوة، وقرر أبي أن نشاهد الشروق من فوق «جبل الموتى»، الذي تشاءمت أمي من اسمه، بينما تحمست نادية لرؤيته ودخول المقابر الفرعونية المتراصة عموديًّا في باطنه على شكل خلية نحل مرعبة.

كان فجرًا باردًا، لكن الملابس الثقيلة التي حشتني أمي بداخلها كانت كفيلة بتحصيني ضد تلك النسمات الخبيثة المتسللة إلى صدري.

وصلنا عند هذه الهضبة العالية التي سُمِيَت جبلًا مجازًا، واقتربنا من الدرجات الحجرية لنبدأ صعود الجبل المدهش، وبينما راح المرشد البدوي يتمتم بمعلومات عن اكتشاف هذه الجبانة الأثرية مصادفةً في أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث احتمى فيها سكان الواحة من غارات الألمان، وعن

الأسرات الفرعونية المدفونة بالمقابر، سمعت همسًا!

صوت أنثوي ناعم يناديني باسمي!

نظرت حولي فلم أجد سوى مجموعة من الأجانب المسنين يتمتعون بمنظر الواحة السحري من أعلى الجبل الصخري، فشعرت بالارتياب.

المكان يبدو مخيفًا؛ فتحات المقابر التي تخترق شكله المخروطي تشبه أفواهًا متلهفةً لابتلاع أجساد الموتى المحنطة! ازداد خوفي عندما قال المرشد إنه يُشاع أن جيوش قمبيز ملك الفرس، قد ابتلعتها رمال هذا الجبل ولم يظهر لها أثرا!

انشغلت أمي متمتمةً بآية الكرسي كلما سمعت كلمة «موتى» أو «سحر» أو «مقبرة»، بينما كان أبي يشاهد المباني والبيوت البدوية الدقيقة المرصوصة أسفل الواحة ملتقطًا بعض الصور. وكانت شقيقتي تدوِّن كل معلومة يلقيها المرشد ذو الجلباب الأبيض، وتقابلها بسيل من الأسئلة الدقيقة المفصلة. وحين تأكدت أنه ما من أحد يراقبني، تسللت من بينهم متتبعًا الصوت الأنثوي الذي يناديني.

كان مصدر النداء فتحة مقبرة قريبة من السلالم، وقفت عند طرفها بينما أكمل أهلي صعود الدرجات ظانين أنني من

خلفهم، لكني بقيت أنظر إلى فتحة المقبرة التي لم أرَ فيها سوى ظلام يتخلله ضوء خافت يتراقص في زاوية قاعها القريب.

مِلت لأستوضح مصدر الضوء، فانفلتت ساقي إلى داخل فتحة المقبرة، وكدت أسقط على وجهي لولا يد خفية تلقفتني، فسقطت على مؤخرتي عوضًا عن وجهي.

وفوق أرضية المقبرة المنخفضة تلفت حولي فلم أجد أحدًا، ولم أعثر على مصدر الضوء الخافت الذي كان في الزاوية!

لا أحد سواي في هذه المقبرة الفرعونية ذات السقف المنخفض! نهضت ونفضت الرمال عني ثم بدأت أمعن نظري.

كانت المقبرة تشبه الكهف الصخري في أفلام الكارتون، خصوصًا أن جدرانها امتلأت بنقوش وصور لبشر برؤوس حيوانات أسفل شجرة مخيفة متشابكة الأغصان أذكر أن أمي أخبرتني أنها تُدعى شجرة «الجميز».

فكرت في كيفية التسلق نحو الفتحة كي أخرج من تلك المقبرة العجيبة، لكني سمعت اسمي ثانية، فاتبعت ذاك الصوت العذب.

مشيت في دهليز مستطيل ضيق، وعلى الرغم من أني وحيد في جوف ذلك الجبل الموحش فإن روح المغامرة

دفعتني إلى الأمام، كأنني في أحد أفلام إنديانا جونز التي يجبرني قطز على مشاهدتها.

بهذا الحماس الصبياني، سرتُ وضوء الفجر الخافت يتسلل من فجوات سقف الجبل فيضيء أجزاءً من طريقي، حتى سمعت بكاء أطفال وهمسات خافتة، ثم شعرت ببرودة مباغتة، وشممت رائحة مالحة غريبة، ورأيت منظرًا أكثر غرابة جعلني أتوقف وأراقب في صمت: مجموعة كبيرة من الأشخاص يرتدون جلابيب بدوية، يجلسون أرضًا متكومين في الزوايا، ملتصقين بالجدران الصخرية، يرتعشون ويحتضنون أبناءهم ونساءهم في هلع، يتطلعون إلى أعلى مسترقين النظر إلى فجوات السقف الصخري التي تخترقها أصوات مخيفة تشبه أصوات الطائرات الحربية في الأفلام التي أشاهدها مع أبي عن حرب أكتوبر!

بُهِتُّ من عنف الدوي المقترب، وكأن الطائرات ستسقط فوق الجبل، لكن ضجيج المحركات قطعه صهيل خيل، فالتفت لأجد حصانًا أسود، ذيله مجدول، وشعره مقصوص، وعلى ظهره سرج أنيق دقيق التطريز، يمتطيه فارس يرتدي زيًّا حربيًّا معدنيًّا، وفي يده اليسرى راية مرفرفة عليها قرص شمس ذهبي، وفي اليمنى سيف صارم، وعلى رأسه خوذة ثقيلة تنتهي بريشة نعام بيضاء كبيرة.

شق الفارس المحارب الدهليز بحصانه، وعبر من خلال أجساد البدو الخائفين من الطائرات، فاهتزت صورتهم كصفحة بحيرة مضطربة أُلقي عليها حجر رشيق، ثم ثبتت الصورة ثانية دون أن يُظهروا أي تعبير أو ردة فعل.

لم يلتفتوا إلى الفارس وكأنه لم يعبر من خلالهم منذ لحظة، بل ظلوا يرتعدون وينظرون إلى فتحات الجبل كمن ينتظر الموت.

أخذت أراقب ممتطي الحصان الأسود الراكض بالجوار حتى أرعبني صياح غاضب، فاستدرت لأجد نفسي على مقربة من باب مقبرة أكثر أناقة ونظافة من تلك التي سقطت فيها.

وقفتُ عند مدخلها ونظرت إلى جدرانها المزينة برموز ملونة باللون الأحمر، لكني لم أهتم للنقوش الفرعونية، فقد تعلقت عيناي بالأرض حيث يرقد تابوت حجري مغلق، خرج منه ملك فرعوني عاري الصدر يرتدي حليًا ذهبية من رأسه حتى قدميه.

لا، إنه لم يخرج من التابوت، لم يفتح غطاءه الموصد، بل عبر من خلال بابه الحجري؛ نفذ منه إلى الخارج، ثم وقف على مقربة مني ولم ينظر نحوي وكأني غير موجود بالمرَّة، ثم نظر حوله بعجرفة ورفع رأسه بغرور ومر من خلالي.

شعرت ببرودة مخيفة انتصبت لها كل شعرة في جسدي، وتضاعف خفقان قلبي، وتمكن الخوف من بسط سلطانه عليّ، فور أن عبر الملك من خلالي، لكنني شعرت فجأة بيدٍ فوق كتفي!

التفتُّ لأجد شابة بدوية ترتدي ثوبًا أبيض ذا كُمين واسعين، مطرزًا تطريز ملابس بدو الواحة. كانت تحمل في يدها مصباحًا زيتيًا تتراقص فيه شعلة تعكس جمال ملامحها: بشرتها الرائقة، وعينيها الواسعتين، وأنفها الدقيق، وشفتيها المكتنزتين، ووجنتيها التفاحيَّتين، وشعرها الأسود المنسدل حتى خصرها.

اهتزت الحُلي الفضية التي تغطي كفها، وراحت هي تبتسم لي بحنان أذهب عن جسدي القشعريرة والبرودة اللتين خلَّفهما الملك المغرور. وعندما كلمتني أدركت أنها صاحبة الصوت الذي يناديني منذ البداية.

- ما تخافش.

قالتها وهي تنظر حولها حيث البدو الخائفين من أصوات الطائرات، والملك الذي يمشي مزهوًا، والفارس الذي يطوف بحصانه، ثم جثت على رُكبتيها، لتهيمن على أنفي رائحة الليمون النضر التي فاحت منها حين اقتربت مني هامسة

برفق:

- لو رايد الأمان، شُق اللمونة يا إنسان، وانطق اسمك، بعد ذكر السلام.

لم أفهم شيئًا مما نطقته، لكنها فتحت قبضتها فرأيت فيها ليمونة صفراء كبيرة نضرة قدمتها لي بابتسامة مشجعة، فقَبِلتُ هديتها ببلاهة الأطفال، وحاولت أن أشقها كما أرشدتني.

قضمت جزءًا منها بأسناني، لأسهل عملية شقها نصفين، وفور أن شُقت نصفين، انبعثت رائحة الليمون اللاذعة، فالتفت كل الموجودين إليّ وكأنهم أدركوا وجودي للتوِّ.

الملك والفارس المحارب والبدو الخائفون، جميعهم ثبتوا أنظارهم نحوي، فبدأت عصارة الليمونة تجف كأن روحًا خفية تمتصها، حتى تغيّر لونها من الأصفر إلى البُني في ثوانٍ معدودة.

ربتت البدوية الجميلة على كتفي وهزت رأسها في رضا، فأكملت تنفيذ إرشاداتها، واتجهت بشجاعة صوب كل الموجودين، ورفعت رأسي قائلًا بفخر كالمنشدين في كورال المدرسة:

- السلام عليكم، أنا نوح الألفي.

ابتسموا جميعًا وهزوا رؤوسهم مجيبين في صوت واحد:

- وعليكم السلام!

غزا المكان ضوء كشاف قوي جعل أرواح المقبرة كلها تتلاشى تدريجيًا، حتى صاحبة الليمونة، ثم سمعت وقع أقدام يصاحبه صوت أمي تصرخ باكية، وأبي ينادي هلعًا:

- إنت فين يا نوح؟! يا نوووووووح! نوووووووح!

اختفى كل شيء عدا الليمونة التي ظلت في يدي، وعرفت يومها أن الليمون له فوائد أخرى غير محاربة «الإنفلونزا» ومعالجة داء «الإسقربوط»؛ إن رائحته تجذب الأرواح، لذلك أُبقي واحدة في جيبي كلما أردت الاستعانة بروح هائمة.

منذ ذلك اليوم وأنا أشق الليمون، وأُلقي السلام، ثم أنطق اسمي كلما رأيت روحًا!

***

بعد منتصف الليل اتجهت إلى ميدان طلعت حرب أمام العمارة رقم ٦، فاستوقفتني رؤية روح الطالبة التي ذُبحت في سيارتها وتولى قضيتها صلاح الشبكي.

كانت شفافة كسائر الأرواح، ويمكنك الرؤية من خلالها، ترتدي الملابس نفسها التي قُتلت بها، وتظهر بعد يوم كامل

من موتها في المكان نفسه الذي ماتت فيه.

كانت كمعظم الأرواح، لا تعلم أنها ميتة، فقد كانت تقف مكان سيارتها ـ التي تحفَّظ عليها فريق البحث الجنائي ـ وتتلفت حولها في توتر، وكلما مر أحدهم بجوارها تذهب صوبه قائلة:

ـ لو سمحت، ما شُفتش عربيتي؟!

لكنها لم تجد إجابة، لأنه ما من أحد يراها أو يسمعها، حتى إن شابًّا متعجلًا عبر من خلالها دون أن ينتبه، فوقفت مشدوهة تنظر إلى جسدها الشفاف في هلع.

قد يشعر بعض الأحياء بوجود روح تطوف من حولهم، حيث يشمون رائحةً مفاجئة لا مصدر لها، كرائحة الدخان القوي أو العطر النفَّاذ، أو يحسون بتغير مفاجئ وغير مبرر في درجة الحرارة، لكن أن يروا الأرواح بوضوح، فهذا أمرٌ يحتاج إلى عين أثيرية كالتي حصلت عليها في جبل الموتى.

فيما يخص التعامل مع الأرواح، لديَّ بضع قواعد:

القاعدة الأولى

لا تتعامل إلا مع الروح التي يهمك أمرها، لأن الأرواح الأخرى ستظل ملتصقة بك لكونك الوحيد القادر على رؤيتها، فهي

تعاني الوحدة، ولن تدعك وشأنك، بل ربما طلبت منك طلبات سخيفة،

كأن توصل رسائل إلى ذويها من الأحياء، أو أن تنتقم لها من قاتليها.

ولإيماني المطلق بتلك القاعدة، صففت سيارتي على جانب الطريق وتجاهلت روح الطالبة المذعورة الهائمة على وجهها.

* * *

صعدت داخل عمارة جروبي، فوقف عسكري يؤدي لي التحية، ثم طلبت منه أن يستدعي البوّاب.

أتى البوّاب لاهثًا، فسألته:

- طه كان تَخنان في الفترة اللي فاتت؟

- لا يا باشا، طول عمره رياضي، وجسمه ولا أجدعها شاب.

- طب كان بيشرب؟

- قصدك منكر يعني؟ تصدق بالله، مع إنه كان كافر بس لا كاس ولا سيجارة.

ازدادت الأمور تعقيدًا، فالكحول والتدخين وزيادة الوزن هي الأسباب الرئيسية للاحتراق الذاتي.

ـ يعني عمرك ما شُفته بيدخن، ولا حتى تفاريح؟

ـ عمري يا باشا، أصل أبوه مات بالمرض الوحش من كُتر السجاير، فكان خايف يموت زيه.

ـ طب كان بياخد منوِّم؟

ـ والله ما أعرف يا باشا. إنتو لقيتوا اللي قتله؟

ـ وإنت مالك! اخفى دلوقتِ وما تطلعش غير لما أندهلك!

رحل البوَّاب، ودخلت الشقة بحذر حتى وصلت إلى غرفة النوم، وقد ترك فريق البحث الجنائي علامات في الغرفة، أهمها علامة على مكان الكرسي الذي نُثر عليه رماده.

ارتديت القفاز الطبي حتى لا أُفسد موقع الجريمة، ثم نظرت إلى مكان الكرسي الذي كان يبعد عن السرير ببضعة سنتيمترات.

لو مد طه يده أو حتى رفع ساقه وهو يحترق للمس السرير وأحرقه بالكامل!

لِمَ لم ينهض عن كرسيه ويصرخ ويطلب النجدة عندما أدرك أنه يحترق؟

لو تحرك أو ترنح لاحترقت أجزاء من الأثاث، إن لم تكن الغرفة كلها!

في قضية ماري ريزر، كان سبب عدم طلبها النجدة من أحد أنها تناولت منومًا أخَّر إدراكها بأنها تحترق، حتى اختنقت بفعل الأدخنة السامة وماتت قبل أن تتحول إلى رماد منثور. لكن ماذا عن طه الذي لم يجد فريق البحث الجنائي دواءً منومًا أو مخدرًا بين أدويته الخاصة؟!

أخرجت الليمونة الصفراء من جيبي وداعبتها مفكرًا.

إذا كانت ظاهرة الاحتراق الذاتي البشري حقيقية، وتأثير الفتيل الذي يصيب القتيل يعني أنه يحترق عموديًا، فأدخنة النيران المتقدة ستترك أثرًا على السقف فوق موقع الضحية، لكن السقف كان ناصع البياض تمامًا كباقي أثاث وجدران الغرفة!

الأمر لا يتوقف فقط عند كون الغرفة بأكملها لم تُمس، بل إن سطح الكرسي نفسه أصيب بحرق طفيف، ولكن ما أسفله وما فوقه لم يُمسا بسوء!

إضافةً إلى أن لحم وجه طه لم يذب، بل احترق جلده وطُمست معالمه فحسب، وهذا عكس ما يجب أن يحدث لمصابي هذه الظاهرة التي يبدو أنها لا تتماشى مع قضية طه ولا تناسب حالته، فكل من تُوفوا بتأثير الفتيل ماتوا مصادفة، وليس بفعل فاعل ولا انتقامًا منهم!

طه لم يمت مصادفة!

هناك من دبَّر له هذه الميتة المُحكمة، أحدهم أراد أن يجعل منه عبرة.

* * *

أخذت نفسًا عميقًا، وأخرجت السكين الصغير الذي أحضرته معي وشققت الليمونة بعناية، ثم أبقيت نصفها بيدي، ولففت الآخر في منديل وأعدته إلى جيبي ومعه السكين.

خففت إضاءة الغرفة القوية، واكتفيت بضوء مصباح المنضدة، فالأرواح لا تتضح في الضوء الساطع أو الظلام القاتم. ولو كانت روح طه في شقته ـ وهي المكان الذي قُتل فيه ـ فستجذبها رائحة الليمون، وستعطيني الأمان وتسمح لي بمخاطبتها.

من المفترض أن تحل روحه على الأرض في اليوم التالي، في الساعة نفسها التي قُتل فيها، لكن متى ستظهر تحديدًا؟

توقفت عن الإفراط في التفكير، لأنه عند استقبال روح أحد الموتى يجب أن يكون الذهن صافيًا حتى لا تُشتت الروح التي تود التواصل معها وتخيفها فتهرب منك.

شعرت ببرودة خفيفة حين بدأت الليمونة تجف تدريجيًا،

فنظرت حولي ببطء منتظرًا أن أرى طه. واشتدت البرودة مع تغيُّر لون الليمونة، ثم فاحت رائحة عطر قوي.

استحضرت ذهني، ولم أُبعد عينَي عن النقطة التي أنظر إليها، وتجاهلت تلك القشعريرة والرجفة الداخلية التي تتزايد حدتها، على الرغم من رؤيتي لمئات الأرواح سابقًا، لكنه الطيف الذي كلما اقترب مني، زادت نبضات قلبي.

بعد كل هذا المجهود البدني والذهني، وجدت روحًا غير التي انتظرتها! إنها روح الطالبة الضالة! وقفَت في منتصف الغرفة وعلى وجهها علامات الذهول والتعجب، وأخذت تنظر إلى نصف الليمونة ثم إليّ ثم إلى الغرفة كلها.

بلعت ريقي وكتمت غضبي، ربما يجب أن أتظاهر بأني لا أراها لكي ترحل، لكن أعيننا التقت فقالت:

- إنت شايفني؟

لم أُجبها، وتظاهرت بأني أتفحص السرير، فاقتربت مني قائلة بإلحاح:

- يا أستاذ، حضرتك شايفني؟ يا أخينا، إنت سامعني؟

يا لحماقتي! لقد جذبت الروح الخطأ! لِمَ لم أفكر في أنها تطوف في المكان وستنجذب كغيرها إلى رائحة الليمون؟!

تجاهلتها، لكنها مدت يدها إلى ذراعي، فشعرت بكهرباء تسري في عروقي، فصحت بها:

- لا، لا، لا!

القاعدة الثانية

إياك أن تجعل روحًا تلمسك!

ابتسمت:

- يعني إنت شايفني!

القاعدة الثالثة

تحدث مع الأرواح باحترام، كأنهم أشخاص أحياء، وابدأ دائمًا بالسلام.

زفرت قائلًا:

- السلام عليكم، أنا نوح الألفي.

- وعليكم السلام، أنا بُشرى. كنت بادوَّر على عربيتي وبعدها شميت حاجة و...

- شميتِ ريحة الليمون.

- أنا عمري ما حبيت ريحته، بس مش عارفة ليه لقيت حاجة بتشدني إني أطلع العمارة وأدخل الشقة.

ثم نظرت حولها قائلة:

ـ أنا إزاي دخلت الشقة وبابها مقفول؟

خرجت إلى الصالة، وتأكدت أن الباب مغلق.

القاعدة الرابعة

أخبرهم بأنهم موتى بطريقة تدريجية حتى لا تربكهم.

ـ عديتِ من الباب وهو مقفول.

ضحكت وظنت أنني أمازحها، ثم قالت:

ـ إزاي يعني؟ أكيد ده حلم. أنا كنت بايتة عند صاحبتي بنذاكر، وحلمت إني ركبت عربيتي، وكان فيه حد قاعد ورا دبحني، وبعدها صحيت من الكابوس الفظيع ده. كان كابوس مرعب أوي، كأنه...

ـ كأنه حقيقي.

هزت رأسها موافقة فأضفت:

ـ للأسف، هو فعلًا حقيقي.

ضحكت بالطريقة نفسها، وقالت:

ـ هو إيه اللي حقيقي؟!

- اللي شُفتيه ما كانش كابوس. ده واقع.

صمتت لوهلة وكأنها تزن كلامي، ثم علقت مرتبكة:

- واقع إزاي يعني؟ إيه الهزار السخيف ده؟! إنت...

- أنا النقيب نوح الألفي، وأنا بنفسي شُفت جثتك.

صاحت بكلمات متقطعة:

- جثة؟! يعني أنا... أنا ميتة؟ طب إزاي وإنت شايفني وبتكلمني أهو؟!

- محدش غيري يقدر يسمعك ويكلمك.

- بس...

أخرجت النصف الآخر من الليمونة وبدلته بالنصف الذي جف منتظرًا ظهور روح طه في أي لحظة، لكن بُشرى لم تتوقف عن الهذيان:

- يعني أنا عفريتة؟

- إنتِ روح، طيف، لكن مش عفريتة. العفاريت كائنات تانية مستقلة بذاتها.

ظلت تحدق فيّ وكأنني مخبول، ثم خرجت من الغرفة كما دخلتها، فزفرت بارتياح.

جلست على طرف السرير منتظرًا ظهور روح طه، لكن من الواضح أن السويعات التي نمتها في بيتي لم تكن كافية، فقد انتابني النعاس ثانية، ثم أتاني شعور بارد بأن هناك من يراقبني، ففتحت عينَي بغتة لأجد روح بُشرى جالسة بجواري، وعلى وجهها أمارات الكمد.

اعترفت لي منكسرة دون أن أسألها:

ـ محدش شايفني، الناس بتعدي مني فعلًا كأني طيف.

فركت عينَي، وعدلت جلستي، ثم تفقدت ساعتي. إنها الثالثة فجرًا.

تابعت بُشرى كلامها متكدرة:

ـ هو أنا اتدبحت فعلًا زي ما شُفت في الحلم؟

نظرت إلى نصف الليمونة، لم يتغير لونه ولم يجف، وروح طه لم تظهر بعد.

ـ آه.

ـ ليه؟

ـ وأنا إيه اللي عرفني؟!

ـ مش بتقول إنك ظابط؟!

ـ أيوه، بس مش أنا اللي شغال على قضيتك.

ـ أومال مين؟ أنا عايزة أتكلم معاه دلوقتِ حالًا.

ـ محدش هيسمعك ولا هيشوفك.

ـ إشمعنى إنت؟

ـ عشان ربنا مديني حاسة مش عند غيري.

ـ الحاسة السادسة يعني؟ سوبر هيرو إنت؟!

ـ لا سوبر ولا زفت، أنا بس...

زفرت ثم أكملت على مضض:

ـ وقعت في المقابر وأنا صغير فطلعت باعرف أشوف الأرواح وباتكلم معاها و...

ـ اتلبست زي مسلسل «ساحرة الجنوب» كده؟

ـ أنا مش ملبوس! أنا باشوف وباسمع وباتكلم مع أرواح الميتين طول ما هما على الأرض وبس. معنديش تفسير علمي أو منطقي للموضوع.

ـ قصدك إيه بطول ما هما على الأرض؟

ـ قصدي طول الأربعين يوم اللي بتقعدوهم على الأرض.

- وبعد كده بنروح فين؟

- بيقولوا بتطلعوا السما أو بتنزلوا القبر أو بتنتقلوا للبرزخ. ما أعرفش.

- والناس عارفين إنك بتشوف الأرواح وبيتعاملوا معاك عادي كده؟

- أسيب بقى القضية اللي ورايا وأقعد أحكيلك قصة حياتي! أنا عندي شغل، ووجودك مشتتني. فرصة سعيدة.

- فرصة سعيدة؟! هو أنا قابلتك صدفة في ستاربكس يا عم إنت؟ أنا اتدبحت وبقيت روح، ومحدش شايفني غيرك. رجلي على رجلك لحد ما أفهم أنا وضعي إيه.

تمتمت زافرًا:

- بدأنا في شغل الستاكر الأمريكاني. يا ستي أنا مش هافيدك في حاجة.

- لأ، هتفيدني. أنا عايزة أتطمن على مامي وأخويا، وأعرف مين اللي قتلني، وقتلني ليه، و...

- إنتِ جايالي أحققلك أحلامك؟! أنا عندي قضية رأي عام معقدة أكتر من قضيتك ميت مرة.

- يعني أنا دمي يروح هدر عشان حضرتك ماسك قضية

رأي عام؟!

- معاليكي مش أنا اللي ماسك قضيتك. اتكلي على الله بقى.

- طب والله لو ما عملت اللي باقولك عليه لأعفرتك.

سألتها ساخرًا:

- هتعفرتيني إزاي يعني يا ست الكتكوتة؟

- هالبِسَك.

- الجن والعفاريت بس هما اللي بيلبسوا الإنسان.

- طب هاجننك هـ...

- خليني أوضحلك إنك روح ملهاش أي قوة فيزيائية. إنتِ ما تقدريش تشيلي حتى ورقة من على الأرض. ففُكك خالص من جو الـ «paranormal activity» ده.

ارتبكت وتراجعت، ثم همست:

- يعني أنا مليش أي قوة خارقة؟

- كبيرك تعدي من الباب وهو مقفول.

ظلت واقفة في مكانها وقد ثبتت نظارتها على أنفها، ثم أعادت خصلة شعر بُنية خلف أذنها وهي تفكر، بينما حاولت

أنا الاتصال بقطز لكن هاتفه كان مغلقًا، حتى قالت هذه الروح اللحوحة:

- يمكن ما أقدرش أأذيك كروح، بس أقدر أبهدلك كبنت، وأفضل أزن في ودانك لحد ما تكره حياتك.

لم أجبها، فجلست بجواري على السرير، وصاحت بصوت حاد:

- مين اللي قتلني؟ ها؟ مين اللي قتلني؟ مين؟ مين؟ مين؟

البنات حتى وإن متن، لا يتخلين عن أعز ما يملكن: قدرتهن الخارقة على الزن.

أخرجت سماعاتي وأوصلتها بهاتفي، ثم شغلت الأغاني لينساب صوت حكيم إلى أذني: «طب الله الله الله الله الله الله، إيه ده إيه ده إيه ده إيه ده».

أحبال حكيم الصوتية الخارقة غطت على صوت بُشرى الطنان، وقد رأيت الضيق على ملامحها، وبدأت تطوح بيديها في الهواء غاضبة، وتحاول أن تجذب السماعات أو تغلق الهاتف، لكن أصابعها الطيفية تمر من خلال الأشياء كالهواء دون أن تستطيع إمساك أيٍّ منها، حتى أعادت فعلتها الأولى ووضعت كفها على كتفي، فغمرتني رجفة نتجت عنها برودة وقشعريرة داخلية مباغتة، فانتفضت صائحًا بعنف:

ـ إياكِ تعملي كده تاني!

لو كنت في المنزل لأشعلت البخور وجعلتها تختنق وتفر بعيدًا من دخانه، لكن السخيفة ابتسمت ظافرة، فقلت لها:

ـ أنا باقولك بكل أدب، امشي، ورايا شغل.

ـ شغل إيه وإنت مريح على السرير وبتلعب بلمونة بايظة و...

ـ مش موضوعك أنا باعمل إيه. أقولك على حاجة؟ روحي اتطمني على أمك.

ـ اسمها مامتك.

ـ الست الوالدة، روحي شُوفيها.

ـ ما هي مش هتشوفني.

ـ بس إنتِ هتشوفيها وتطمني عليها. يلّا انصرفي.

ـ طب أروح إزاي؟ مش هاقدر أمشي كل ده.

ـ ما إنتِ لو بطلتِ زن وصفيتِ دماغك وفكرتِ فيها بوضوح، هتلاقي نفسك واقفة قدامها. مش كنتِ بتسأليني عن قوتك الخارقة؟ يلّا يا ست السوبر هيرو روحي لمامي.

نظرت إليّ بشك، لكنها أغمضت عينيها وظلت هكذا لبضع

دقائق حتى اختفت.

أتمنى من كل قلبي ألا تعود مجددًا.

* * *

أذَّن الفجر، وتخللت السماء الداكنة بضعة خيوط من النور الباهت، ولم تظهر روح طه بعد، على الرغم من أن الساعة تخطت الخامسة صباحًا.

كيف لم تظهر روحه بعد وقد تلقينا في تمام الساعة السابعة بلاغ بوّاب العمارة بأن طه ميت؟ من المفترض أن روحه رحلت عن جسده بعد منتصف الليل وفقًا لترتيب خط سيره وشهادة من رأوه في تلك الليلة الملعونة!

أين طيفك يا طه؟

- أنا شُفتها.

التفت لأجد بُشرى جالسة على طرف السرير حزينة ومهمومة:

- إيه اللي رجعك؟

- مامي جاتلها جلطة!

بدأت تبكي مرتعشة:

- أنا طول عمري في حالي. مفيش في حياتي غير المذاكرة والجامعة. مين اللي يخلي حد يدبحني ويقهر مامي كده؟!

اللعنة على ضعفي أمام دموع النساء!

- ما تعيطيش طيب.

- ساعدني، وأنا أوعدك إني هاحل عنك ومش هتشوفني تاني أول ما أعرف مين اللي قتلني.

زفرت مستسلمًا لإلحاحها ونبرة الحاجة المستميتة في صوتها:

- ليكي أعداء؟

- لأ طبعًا، ده أنا آخري أتخانق عشان درجة زيادة، ولًّا مع حد مش شغال كويس في «البروجيكت»، ما توصلش لإن حد يقتلني كده.

- اللي قتلك ما يعرفكيش، أعتقد إنه قاتل مأجور.

- ومين اللي هيدفع فلوس لحد عشان يدبحني؟

- يمكن عدو لأبوكِ، مش لازم يبقى عدوك إنتِ.

- بابي مات ومامي حامل فيَّ، مين العدو اللي هيقتلني بعد عشرين سنة من موته؟

- طب وماما؟

- مامي غلبانة وملهاش في أي حاجة.

- يمكن حاجة حصلت مثلًا أو...

- استحالة حد يكره مامي لدرجة إنه يقتلني بالطريقة البشعة دي!

- وأخوكِ؟

- متجوز روسية، وعايش في الغردقة، وفاتح أوتيل هناك من سنين.

صمتُّ مفكرًا حتى سألتها:

- ليكي في السياسة أو المظاهرات أو...

- مش بافهم فيها.

- طب احكيلي اللي حصل قبل ما تموتي بالتفصيل يمكن نلاقي خيط ونخلص.

- أنا كنت باذاكر عند وفاء، وكنت هابات عندها عشان نخلص «البروجيكت»، بعدها اتصلت بمامي أتطمن عليها لكن ما ردتش لا على الموبايل ولا التلفون الأرضي، افتكرت حصلّها حاجة فاترعبت ونزلت بسرعة للعربية و...

- كانت الساعة كام لما نزلتِ؟

- حوالي واحدة ونص بالليل. جيت أفتح العربية لقيت المفتاح مش راضي يدخل والإنذار اشتغل، بصيت على اللوحة لقيتها عربية تانية راكنة قدام عربيتي شبهها أوي، ومن لهوجتي ما أخدتش بالي إنها مش بتاعتي. ركبت عربيتي، وخلعت الشنطة ورميتها جنبي، وفجأة لقيت الباب الخلفي بيتفتح وحد بيركب ورايا، كان لابس بدلة نايلون بيضا زي بتوع المناحل. شد رقبتي وأنا باحط المفتاح في الكونتاكت، وكتم بُقي عشان ما أصرخش، ودبحني بسكينة غريبة زي اللي في الأفلام الأمريكاني.

شبكت أصابعي قائلًا، وكأن أذنَي لم تلتقطا سوى جملة واحدة مما أسهبت في وصفه:

- عربية نفس عربيتك بالظبط؟

- أيوه، نفس اللون والموديل.

- خدتي بالك من رقمها؟

- آه، كان أمي ٣٠١.

- أمك؟!

- قصدي أ م ي ٣٠١. أنا ذاكرتي فوتوغرافية وباحفظ

الحاجة من أول بصة.

أخرجت هاتفي وبحثت عن رقم ضابط بالمرور كان في دفعتي، فقالت:

- بتعمل إيه؟

رفعت يدي في وجهها كي تصمت عندما أجابني زميلي:

- نوح باشا.

- وليد بيه، إيه أخبار السيطرة؟

- الأمن مستتب.

- باقولك، عايز أسأل عن عربية أ م ي ٣٠١، محتاج اسم صاحبها وعنوانه.

- عيوني يا غالي. حبة وأكلمك.

أنهيت المكالمة ثم جربت الاتصال بقطز ثانية، لكن هاتفه ما زال مغلقًا.

قالت بُشرى:

- صاحب العربية له علاقة بموتي؟

- غالبًا هو اللي كان مستهدف مش إنتِ. تلاقيها واحدة في حجمك وسنك وبتسوق نفس العربية، ومن حظك المهبب

إنكم ركنتوا في نفس الحتة وفي نفس التوقيت، عشان كده اللي قتلك بعد ما دبحك ركز في وشك لقاه مش هو فهرب بسرعة ونسي الباب مفتوح و...

صاحت بنبرة كادت تثقب طبلتَي أذنَي:

- يعني إيه؟ أنا اتقتلت بالغلط! أنا...

- هتفرق معاكي غلط ولّا صح؟ إنتِ في الحالتين ميتة!

- طبعًا تفرق، لما أتدبح زي الخروف بدون ذنب يبقى حرام. إنت لازم تقبض على اللي عمل كده، لازم!

رن الهاتف برقم وليد عطية، فأجبته سريعًا:

- باشا.

- العربية بتاعة واحدة اسمها «شهرزاد محمد أحمد زكي»، ساكنة في ٦ ميدان طلعت حرب.

- شكلها إيه الست دي؟ صورتها عاملة إزاي؟

- رفيعة وشعرها ناعم وعينيها خضرة، مُزة صغيرة كده.

- ألف شكر يا وليد.

التفت إلى بُشرى موضحًا:

- صاحبة العربية شبهك. خيط القضية عندها.

- يبقى نروحلها و...

- إنتِ كنتِ عايزة تعرفي مين اللي قتلك، وخلاص آدينا عرفنا. صباحك مربى.

نظرت في اتجاه النافذة وقد عمَّ ضوء الصباح بعد أن دقت الساعة السادسة والنصف، ثم التفت إلى نصف الليمونة الذي لم يُمس.

- خلاص، لو مش إنت اللي هتكمل القضية يبقى على الأقل عرَّف الظابط اللي ماسك قضيتي المعلومات اللي عرفتها دي و...

- ده على جثتي إني أساعد صلاح الشبكي عشان يحل قضية!

- حرام عليك! لو عندك أخت مدبوحة ترضى إنها...

- قبل ما تكملي الأسطوانة اللي كلكم حافظينها دي، هاروح أقوله إيه؟ روح القتيلة اللي بتحقق في قضيتها طلعتلي وقالتلي فيه عربية بنفس...

- خليه يسأل البوَّاب، هو أول ما شافني جري يلمعلي العربية، ولما نزلت منها قالي لا مؤاخذة افتكرتك مدام شهرزاد، قول للظابط يـ...

رن هاتفي ثانية، ولكن هذه المرة باسم قطز، فأجبت سريعًا علها تتوقف عن الثرثرة:

ـ إنت فين كل ده؟!

ـ أنا لسه داخل المكتب. تعالَ عشان فيه مستجدات مش هتصدقها.

ـ انجز يا قطز.

ـ كل اللي خلتني أسأل عنه في البحث الجنائي مش ملائم لموقع وظروف الجريمة. مفيش عضم للعمود الفقري، والجمجمة ما اتمددتش من أثر الحرارة، ومفيش آثار دهنية على الكرسي، وخد عندك المفاجأة...

ـ ها؟

ـ اللي على الكرسي ما كانش رماد طه. طلع أسمنت مخلوط بشوية حاجات.

***

لم تظهر روح طه، وظلت روح بُشرى تتبعني مثرثرة عن ضرورة مساعدتها لإيجاد قاتلها، لكنني تجاهلتها حتى وصلت إلى القسم، حيث كان قطز في غرفة مكتبنا وسط مجموعة من الملفات والتقارير يشرب الكاكاو متثائبًا بصوت كالزئير.

دخلت وبصحبتي روح بُشرى التي ظلت واقفة أمامي واضعة يديها على خصرها معترضة على تجاهلي لها، لكني وجهت كلامي لقطز على أي حال:

- أسمنت؟!

أعطاني ملفًّا كان مفتوحًا أمامه قائلًا:

- آدي نتايج المعمل. الراس والصوابع يخصوا طه، الباقي كله أسمنت.

فركت عينَي المرهقتين:

- يعني جثة طه عبد اللطيف مش كاملة؟

علَّقت بُشرى مستفهمة:

- طه عبد اللطيف بتاع جرنال «المعارف» مات؟

هززت رأسي قائلًا:

- مات في نفس الليلة اللي إنتِ اتقتلتِ فيها.

نظر قطز حيث أنظر، لكنه لم يرَ روح بُشرى، فهمس لي بتحفظ:

- إنت معاك ضيوف؟

أجبته غير مبالٍ وأنا أقلب في ملف الأوراق المعملية:

ـ البت اللي اتدبحت إمبارح.

نظر نحوها، وقال مبتسمًا كالأبله:

ـ السلام عليكم.

سألتني بُشرى بحماس:

ـ هو كمان شايفني؟

أجبتها بفتور مغلقًا الملف:

ـ لأ. إنتِ تعرفي طه عبد اللطيف منين؟

ـ من التلفزيون، وعمري ما شُفته في الحقيقة غير إمبارح.

أخيرًا نطقت الثرثارة بمعلومة مفيدة!

انتبهت لها كليًا، وسألتها بتركيز:

ـ شُفتيه إمبارح إمتى بالظبط؟ وفين؟

ـ شُفته لما...

صمتت قليلًا ثم ابتسمت بخبث:

ـ أنا ممكن أقولك كل حاجة بالتفصيل لو رُحت للظابط اللي ماسك قضيتي وخليته يدوَّر ورا شهرزاد دي ويقبض على اللي قتلني.

زفرت متضايقًا:

- اللهم طوِّلك يا روح.

تدخل قطز الذي لم يكن يسمع إلا جانبًا واحدًا من محادثتي مع بُشرى - أي جانبي أنا - ثم همس لي بأدب لا أراه منه في غير حضرة الأرواح:

- هي المرحومة محتاجة حاجة؟

- بتقول إنها شافت طه قبل ما يموت، ومش هتحكيلنا شافت إيه غير لما أساعدها في قضيتها.

- عرفتها إن المحروق صلاح هو اللي ماسك قضيتها مش إحنا؟

- اتنيلت قلتلها! الهانم مصممة نديله المعلومات اللي عندنا عشان...

- معلومات إيه اللي عندنا؟ ما إحنا قاعدين زي خيبتها أهو!

قصصت عليه ما عرفته عن السيارة المطابقة وحكاية شهرزاد، فقال قطز بحنانه الجياش:

- طب ما تساعدها يا نوح! كده اللي اسمها شهرزاد دي معرضة للقتل. حرام!

قالت بُشرى موبخة إياي:

- شايف الناس اللي بتحس؟

- خلاص يا قطز، روح إنت لصلاح وقُله.

سحبت ورقة بيضاء كتبت عليها اسم شهرزاد وعنوانها كاملًا:

- اديله الورقة دي.

- طب ولو سألني عرفت منين؟

- قُله كنت معدي عند العمارة الصبح لقيت عربية بنفس المواصفات، وسألت البوّاب قالي اسم صاحبتها. خلينا نخلص بقى ونشوف شغلنا!

خرج قطز مسرعًا، بينما شبكت أصابعي مركزًا نظري على بُشرى وأنا أقول لها:

- اتفضلي ارغي. شُفتيه فين؟

- شُفته مرتين، الأولى لما كنت باركن عند بيت وفاء وكان هو نازل من عمارة جروبي وبيتكلم في التلفون، وبعد كده شُفته تاني وأنا نازلة بالليل و...

- المرَّة التانية كانت الساعة كام بالظبط؟

ـ قبل ما أتقتل على طول، يعني على واحدة ونص كده بعد نص الليل. كان نازل من نفس العمارة وبرضو بيتكلم في التلفون.

حدقت أمامي للحظة.

البوَّاب قال إن طه رجع من المقهى في تمام الحادية عشرة، وفي منتصف الليل خرج البوَّاب ليجلس على المقهى، وبُشرى رأت طه قبل مقتلها بدقائق، أي حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، وكان خارجًا من العمارة ويتحدث في التلفون و...

التلفون!

كيف لم أفكر في تتبع موقع المكالمات واكتفيت بالأرقام المسجلة والرسائل النصية؟!

بحثت بين أكوام الأوراق فوق مكتب قطز، لكن عودته إلى الغرفة قطعت بحثي، وإذ به يقول:

ـ اتأخرنا! شهرزاد ماتت خلاص!

وضعت بُشرى يديها على فمها مصدومة، بينما أضاف قطز:

ـ طلعت واحدة لا مؤاخذة، صوَّرت نفسها مع رجل أعمال في وضع مُخل، وبدأت تبتزه، والباشا متجوز بنت وزير مهم،

فبعت واحد يقتلها، فقتل الآنسة بُشرى بالغلط، ولما حب يصلح غلطته، استدرج شهرزاد لشقة في المعادي وقتلها، بس حظه إنها صوَّتت والجيران اتلموا ولحقوا القاتل قبل ما يهرب.

التفت إلى بُشرى متنفسًا الصعداء لأنني سأتخلص منها كليًّا:

ـ ها؟ خلاص؟ اتبطيتِ؟

قالت بُشرى بفتور:

ـ يعني قبضوا عليه؟

ـ ما بيقولك لحقوه قبل ما يهرب.

التفت إلى قطز:

ـ ماتت إمتى؟

ـ في الفجر. والواد اعترف من أول قلم، وجوز بنت الوزير ده بيتحقق معاه في النيابة. صلاح ما كانش مقتنع إن فيه ربط بين الجريمتين، بس لما لقى إن عنوان شهرزاد ٦ ميدان طلعت حرب، وطلعت مأجرة أوضة في بنسيون مع مجموعة من البنات اللي زيها، واتأكد من ملفها في الآداب وقلِّب الموضوع في دماغه، لقى فعلًا إن اللي قتل الاتنين واحد،

خصوصًا إن شهرزاد اتدبحت بنفس الطريقة، وعلى تلفونها الفيديو اللي ابتزت بيه الـ...

- ابتزته؟!

صمت قليلًا ثم قلت بسرعة:

- هات سجل مكالمات طه.

انتشل ورقة من بين عشرات الأوراق المنثورة فوق مكتبه، ثم أعطاها لي قائلًا:

- بتفكر في إيه؟

- استنى.

وجدت رقمًا غريبًا اتصل بطه في تمام الساعة السادسة، ثم رقمًا آخر كلمه ثلاث مرات، وكل مكالمة استغرقت قرابة الدقيقتين ما بين الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وحتى الثانية والربع.

- شُفلي يا قطز صاحب الرقم ده.

- ودي برضو تفوتني؟ ده رقم من اللي بيتباعوا على الرصيف، وبعت حد يدوَّر على صاحبه و...

- مش مهم صاحبه، أنا عايز بتوع جهاز الاتصالات يحددوا

الرقم ده كلم طه منين بالظبط.

- ماشي.

أجرى قطز اتصالًا طلب فيه تحديد موقع تلك المكالمة بالقمر الصناعي، ثم التفت إليَّ فبادرته بسؤال آخر قبل أن يعلق على أي شيء:

- لقيتوا إيه على اللابتوب بتاعه؟

- ولا حاجة، مقالات وأبحاث فلسفية وكتب عن الإلحاد.

اقتربت من مكتب قطز بالكرسي حتى التصقت ركبتاي بمقدمته الخشبية، وأخذت أنطق بالأفكار المتدفقة من عقلي، قائلًا في حماس:

- لو حطينا كلمة «الله أكبر» اللي على الحيطة، وإلحاد طه، على جنب، تفتكر اتقتل ليه؟

شاركتنا بُشرى في الحوار لتدلي بدلوها قائلة:

- يمكن حد عايز ينتقم منه.

أضفت معلِّقًا:

- أو حد عايز يسكته.

قال قطز ليشاركني في حالة العصف الذهني تلك:

- يسكته ليه؟ طه ما كانش بيتكلم في السياسة ولا الاقتصاد، يعني مش مناضل و...

- بس ممكن يبقى بيبتز.

صمت قطز لوهلة حتى نطق أخيرًا:

- بتفكر في إيه؟

- الأظرف اللي كان بيسلمها ويستلمها! طه ممكن يكون زي شهرزاد، بيمسك صور أو فيديوهات أو ملفات أو حاجة يساوم صاحبها عليها. يمكن كان ذكي فخلى سعره حنين عشان كده الكل بيدفع، يسلمه ظرف فيه فلوس ويستلم ظرف فيه مصيبته، وكان بيختار مكان في العلن عشان يبقى في الأمان، بس فيه واحد رفض يدفع.

- حد ما قدرش على التمن اللي طه طالبه؟

- أو حد مش واثق في إن الفلوس هتسكِّت طه، حد عرف يستدرجه لمكان مقطوع، عشان كده ما لقيتش روحه في بيته.

خبطت على المكتب بخفة متمتمًا:

- أنا إزاي غبي كده؟! طه ما اتقتلش في بيته من الأساس. قطعوا راسه وكفه وعملوا المسرحية دي عشان نتلهي و...

قاطعني رنين تلفون المكتب، فرفع قطز السماعة وأخذ ما أراده من معلومات ثم أنهى المكالمة، وقال لي:

ـ مصدر المكالمة المنطقة الصناعية في التبين.

ـ التبين؟!

أخيرًا اتضحت الرؤية.

٥

في بعض الأحيان يجب أن تغلق عينيك كى ترى بوضوح.

داعبتُ الليمونة مفكرًا ومتصورًا المشهد بشكل منطقي.

طه ابتز شخصًا مهمًّا، فقام هذا الشخص بمجاراته، وأكد عليه أنه سيدفع له المبلغ كاملًا، ثم استدرجه بعد أن كلَّمه ثلاث مرات بين الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وحتى الثانية والربع ليصف له العنوان الذي سيقابله فيه.

وصل طه إلى المكان المحدد، فنحروا عنقه، وقطعوا كفه التي يلبس فيها خاتمًا مميزًا، ثم أخذوا مفاتيح شقته، ووضعوا الرأس والكف بعد أن حرقوهما في حقيبة داكنة يصعب معها اكتشاف الأمر، واتجه القاتل (وهو في الغالب أحد رجال الشخص الذي ابتزه طه) إلى العمارة ثم دخل الشقة من بابها، فأحرق الكرسي بشكل سطحي ثم أطفأه (ربما ببطانية كانت معه)، وربما يكون قد أحضر معه كرسيًّا محروقًا لم يكن في بيت طه من الأساس، ووضع عليه رأس طه وكفه وكأنه كان جالسًا على ذلك الكرسي، ونثر عليه الأسمنت الذي يبدو بالفعل كرماد جسد محترق، ثم كتب على الحائط «الله أكبر» ليلصق الجريمة بأحد المتدينين المخالفين لطه ممن يعيبون عليه إلحاده، وليجعل منا

أضحوكة، وليجعل الجميع يؤمنون بفكرة العقاب السماوي الذي أهلك الكافر. وقد نجح بالفعل.

لم يشتتنا ويجعلنا نبحث في دائرة أعداء طه من المتدينين فحسب، بل إنه جعلنا نبحث عن أدلة في نطاق منزله فقط، وعلى الصعيد الآخر جرى التخلص من باقي جسد طه.

وبما أن مصدر المكالمة المنطقة الصناعية في التبين، فعملية القتل تمت هناك. ويبدو أن أسلوب الحرق يستهوي القاتل، نظرًا إلى طريقة حرق الرأس والكف ونثر الرماد المزعوم. وإذا ربطنا بين موقف منصور الباز السابق مع طه، وكونه صاحب مصانع للحديد والصلب في التبين، فغالبًا جرى التخلص من جثة طه في أحد أفران المصانع التي يمتلكها منصور، في درجة حرارة لا تقل عن ١٥٠٠ درجة مئوية.

علَّق قطز:

ـ إنت بتشك في منصور رغم إن الجرسون قال إنه هو وطه كانوا بيفطروا وبيضحكوا؟

ـ شُفها كده من الزاوية دي، طه ماسك حاجة على منصور، فقام واخده على حجره وضحك وهزار عشان ما يبقاش

موضع شك، بعدها استدرجه لمكان مصنعه، ده المكان الوحيد اللي ممكن حد يتعرض فيه لدرجة الحرارة العالية دي بدون ما يثير الشكوك.

تمتم قطز مسترجعًا معلومة قرأها في موسوعة ما:

ـ درجة حرارة انصهار الحديد ١٥٠٠ درجة مئوية، والجسم محتاج ١٥٠٠ درجة عشان يتحول لرماد، يعني هو اتخلص من جثة طه هناك، لكن طبعًا ما قدرش يلم الرماد فراح عمل الحركة بتاعة الأسمنت، بس احتفظ براس طه وكفه عشان لو طلعنا وقلنا للناس إن ده أسمنت مش رماد هيقولولك ربنا خفى جسمه وساب راسه وكفه عشان يبقى عبرة.

ـ لعبها صح ابن الصايعة وسوَّحنا عشان ندوَّر ورا المتدينين ويبقوا هما بس اللي موضع شك، لكن في الحقيقة طه ما ماتش عشان ملحد، مات عشان مبتز.

ـ ابتز منصور الباز بقى بإيه؟

ـ طه اللي هيقولنا.

* * *

ظللنا حتى الساعة الواحدة فجرًا نبحث عن أي دليل أو معلومة تُتخذ ضد منصور الباز، لكنه مثل الأخطبوط، له

ذراع في كل مكان وركن وزاوية. هو كسائر قادة عصرنا، حرباء تتلون بلون كل سلطة، وتتقرب من أصحاب المناصب والنفوذ. في عهد مبارك لعب الاسكواش، وفي عهد الثورة لبس حظاظة ونكش شعره، وفي عهد مرسي حمل المسبحة والسواك، وبسقوط حكم الإخوان حلق ذقنه وجمع التبرعات لصندوق تحيا مصر.

لا أعلم ما الذي يجعله يتخلص من طه بهذه الطريقة المبالغ في إتقانها. لو كان طه يمسك عليه ملفات فساد أو رشوة، فهذا ليس بالأمر الجلل في هذا الزمن الذي يُعد فيه المرتشون ضحية للفقر، والفاسدون ضحية للجهل، والناس ينسون، والحكومات تغفل.

الأمر أكبر من هذا. لا بد أن الدافع شخصي بحت!

* * *

استغرق الأمر ساعة حتى وصلت إلى منطقة التبين، وبينما كنت أقود في الظلام، إذا بشبح على جانب الطريق الصحراوي على بُعد خمسة كيلومترات من مصنع منصور الباز للحديد والصلب: رجل نحيف، قصير القامة، يبدو في منتصف الخمسينيات، يرتدي معطفًا فوق قميص أزرق أنيق، يمشي مطأطئ الرأس، واضعًا يديه خلف ظهره، وينظر إلى الأرض ثم إلى السيارات المارة، فتوقفت.

كان هو، طه عبد اللطيف، بشعره المنكوش، وعينيه الواسعتين، تمامًا كما في الصور.

أوقفت السيارة جانبًا، ونزلت منها متجهًا نحوه.

الآن حان موعد آخر قاعدة:

القاعدة الخامسة

ضع سماعة بلوتوث في أذنك عند التحدث مع إحدى الأرواح علنًا، حتى لا يظنك الناس مجنونًا.

- السلام عليكم، أنا نوح الألفي.

صوب إليّ نظراته قائلًا بابتسامة ساخرة:

- وعليكم السلام يا سيدي. إنت ميت إنت كمان؟

يبدو أن روحه أذكى من الباقين؛ لقد فهم بمفرده أنه روح تُوفِّي صاحبها.

- أنا النقيب اللي بيحقق في قضية قتلك.

سألني بفتور:

- قبضتوا على منصور ولّا لسه؟

- اديني دليل إدانته وأنا أقبضلك عليه النهارده قبل بكرة.

ـ هتلاقي الصور في شقة باب اللوق. دي الشقة اللي ورثتها عن أخويا من عشر سنين، ومحدش يعرف عنوانها غيري. هتلاقي سرير نحاس تحته خزنة فيها صور وملفات تخص كل أوساخ البلد. كلمة السر ٥٨٩١.

ـ ومن بين كل أوساخ البلد اللي ابتزتهم، إشمعنى منصور هو اللي قتلك؟

ـ عشان أنا اتغريت وافتكرته زيه زي غيره. منصور ما كانش يصح يتلعب معاه.

ـ ليه؟!

تمشى ببالٍ رائق كأنه في حديقة الفسطاط، ثم نظر إلى السماء وقال متنهدًا:

ـ لأنه مش هيسمح لحد يعيش بالسر اللي أعرفه عنه. الشواذ اللي منصور بيهاجمهم، هو واحد منهم. قال يعني لو هاجمهم محدش هيشك فيه! أنا عارف الكلام ده من أيام ما كان جار مراتي في نيس. كنت ماسك عليه صور من قبل الثورة، بس قلت بلاش أفضح الراجل، كل واحد حر، لكن هو اللي بدأ، طلع في التلفزيون واستفزني وهاجمني وسبني. بعد ما الحلقة خلصت بعتله من تلفوني السري عينة من الصور إياها. قابلته وقلتله المبلغ المطلوب، وهو عمل

نفسه مش عايز شوشرة وأخدها ضحك وهزار، وقال يعني هيدفعلي اللي أطلبه وزيادة. الخبيث خدني على حجره وقتلني، وخد الصور والموبايل، بس على مين! أنا معايا نسخة من كل حاجة. هتلاقي في الخزنة صور تودي كل الطراطير دول في داهية: اللي بتدعي الفضيلة وهي بتدير شبكة دعارة، واللي بيخطب في المساجد وهو رائد تجارة جهاد النكاح، واللي بينادي بحقوق الغلابة وهو مرتشي، واللي بيصرخ من الإهمال الصحي وهو أكبر مستورد للأطعمة المسرطنة، واللي بيبيع أعضاء أولاد الشوارع، والفاسد والحرامي والمتآمر و...

- والمبتز؟

ابتسم متهكمًا، ثم قال بغرور:

- أنا أشرف فاسد. أنا لا آذيت، ولا افتريت، ولا اتبليت على حد. لو كانوا شرفاء ومستقيمين ما كانش حد مسك عليهم حاجة، وأنا...

- وإنت عرفت فسادهم وسكت. ما أظنش إن ده يخليك أحسن منهم.

ضحك ساخرًا، ثم قال:

- طب آديك إنت كمان عرفت، وريني هتعمل إيه.

* * *

ما وجدته في هذه الخزنة الصغيرة، فتيل قادر على حرق دولة بأكملها!

وثائق وصور منذ تسعينيات القرن المنصرم، كفيلة بحبس أصحابها سنوات لا تُحصى! منهم من مات، ومنهم من هاجر، ومنهم من هو قادر على قطع ألسنة الجميع وإلزامهم الصمت!

قُدِّمت الملفات جميعها إلى النيابة، وجرى التحقيق مع منصور الباز، ولم أرَ روح طه مجددًا، لعلَّها لا تزال تحوم في طريق التبين متأملةً النجوم ومتنهدةً، وتحدث نفسها متفلسفةً.

لقد مات طه فعلًا بتأثير الفتيل، لكن ليس الفتيل الذي يخص الموت بظاهرة الاحتراق الذاتي البشري، بل فتيل الابتزاز الذي أشعله ولم يكن يعلم تبعات نيرانه.

* * *

استيقظت شاعرًا بالبرودة ثانية، فوجدت «روي» كلب جدي ينبح صوب روح بُشرى الواقفة في غرفتي مندهشة متسائلة:

ـ الكلب ده بيهوهو ناحيتي كل ما أدخل! هو شايفني؟

همست بصوت ناعس:

- خديه واطلعي بره.

زفرت وانقلبت على جانبي واضعًا الوسادة على رأسي، لكنها حلقت فوق الفراش ووثبت لتواجهني قائلة:

- كلمني زي ما باكلمك!

- اللهم طولك يا روح! آه يا ستي، الكلاب والقطط والرُّضع بيشوفوا الأرواح، سيبيني أنام بقى.

قطبت جبينها وعقدت ذراعيها وزمت شفتيها لثوانٍ، ثم صاحت غاضبة كعادتها:

- إنت شايف إن ده عدل؟!

- هو أنا اللي هاختار مين يشوف الأرواح ومين لأ؟!

- مش قصدي. عرفت إن اللي قتل شهرزاد اتعاقب بتهمة قتلها هي بس؟ ما ربطوش بين قضيتي وقضيتها! الظابط صلاح ده فاشل و...

- يعني ربطوا قضيتك ولَّا ما ربطوهاش، في الحالتين الراجل هيتعدم مرَّة واحدة.

- إنت إزاي بارد كده؟! إنت مش دورك إن العدالة تاخد

مجراها؟

تمتمت ورأسي أسفل الوسادة:

- أنا دوري أكشف الحقيقة وبس. العدالة دي بتاعة النيابة والقضاء.

- يعني إيه الكلام ده؟ أنا...

نهضت صائحًا:

- إنتِ فاضية ومش لاقية حاجة تعمليها، صح؟ ما ترجعي لأمك!

- باسل أخدها معاه الغردقة. كده أحسن.

- الأحسن بقى إنك تسيبيني أنام دلوقتِ.

انقلبت على جانبي الآخر، ورفعت الغطاء حتى وجهي، وكدت أن أغفو ثانية، لكنها اقتربت وقالت بضحكة بلهاء:

- تعرف إنك بتنام بعين نص مفتوحة وبُقك بيبقى مدلدل؟ شكلك أهبل أوي!

اللعنة على حالة العين الأرنبية الليلية التي تجعلني أنام بعين مفتوحة كالذئب!

أزحت الغطاء عني، ثم جلست في سريري، وفركت عينَي

بيد، والتقطت سجائري وولاعتي باليد الأخرى من فوق الطاولة المجاورة للفراش.

- هتشرب سجاير على الريق كده؟

- هو إنتِ والدتي؟!

- صحيح، هما فين مامتك وباباك؟

- بابا مات شهيد. كان بيلاحق مجموعة من تجار الهيروين وقتلوه.

- الله يرحمه. طب ومامتك؟ أنا مش باشوف غير جدتك وأختك بس.

- ده إنتِ بقيتِ مقيمة وحافظة العيلة بقى!

- أومال يعني هافضل أربعين يوم لوحدي باعمل إيه؟

- ما تعمليش حاجة، خليكِ لازقالي ومش مهنياني على نومة كده!

- طب ما ندردش شوية، احكيلي حكايتك مع العفاريت.

- تاني هتقولي عفاريت! اسمهم أرواح، أرواااااااح!

- خلاص، أرواح. بدأت تشوفهم إزاي بقى؟

قصصت عليها حكاية جبل الموتى في سيوة، فظلت

تسمعها بتشوق كطفلة في السادسة من عمرها، حتى فرغت من القصة، وإذ بها تعلّق مندهشة:

- لولا إني فعلًا روح وإنت شايفني، كنت قلت دي قصة خرافية مفيهاش ريحة المنطق.

- مش كل الحاجات الحقيقية بتبقى منطقية. أنا عارف إنه موضوع مستحيل يتصدق، عشان كده باحتفظ بيه لنفسي.

- بس صاحبك مصدقك.

- عشان لاسع، والفانتازيا واكلة عقله. لما حكيتله وإحنا أطفال فضل يتحايل على أبوه ياخده سيوة عشان هو كمان ينزل مقبرة جبل الموتى ويشوف الأرواح زيي.

- إنتو صحاب من زمان أوي كده؟

- أبويا وأبوه كانوا صحاب من أيام الكلية، فإحنا اتولدنا لقينا نفسنا صحاب، وكأننا ورثنا صداقتهم مع باقي جيناتهم.

- وعيلتك متقبلين الحكاية دي زي صاحبك كده؟

- لأ طبعًا، ماما أول ما قلتلها على اللي شُفته في المقبرة عملتلي طاسة الخضة.

- طاسة إيه؟!

ـ طاسة الخضة. أصل حياة المصريين فيها ٢٧٤ خرافة، الحمد لله أمي حافظاها وبتطبقها كلها من أول رش الملح والخرزة الزرقة لحد فك الأعمال وتسخير الجن السفلي.

أطفأت سيجارتي بعد أن نفخت أنفاسها الأخيرة، ثم أردفت موضحًا:

ـ وطاسة الخضة دي يا ستي عشان لو ابنك الحيلة اتخض ولَّا اتفزع من حاجة، تجيبيها وتمليها ميه وتبيتيها تحت ضوء القمر وتشرَّبيها للمحروس الصبح.

ـ بس ما دام مامتك ليها في الحاجات دي، يبقى أكيد صدَّقتك.

ـ هي صدقت. صدقت إن ابنها لبسه جن، وطافت بيه على كل الدجالين اللي تعرفهم، اللي يدِّيها حاجات غريبة تبلبعهاله، واللي يقولها حميه بميه وملح وعين العفريت، واللي يقولها عليه جن مش هيطلع غير بالضرب و...

ـ بالضرب؟!

ضحكت بمرارة قائلًا:

ـ ده أنا شُفت أيام سودة!

ـ هي مامتك إزاي بتؤمن بالكلام ده؟ هي تعليمها على قده؟

أجبتها ساخرًا:

- أمي أستاذ الغدد الصماء في القصر العيني.

فتحت جدتي الباب بلا استئذان، ودخلت فجأة وهي تقول بنبرة صارمة لا تناسب قناع الزبادي بالعسل الذي طمس ملامحها:

- فيه حد معاك يا نوح، ولّا إنت خلاص اتجننت وبقيت بتكلم نفسك؟!

- معايا حد يا سونة.

نظرت حولها تطوق الغرفة ببصرها، ثم علقت بفتور:

- طب خلي الحد ده يستنى، ويلّا عشان الفطار.

خرجت يتبعها حفيف رداء نومها الصوفي، وأغلقت الباب خلفها، فعلقت بُشرى:

- إشمعنى جدتك اللي مستوعبة الموضوع عادي؟

- الأول كانت فاكرة إنها حالة نفسية جاتلي عشان قعدت لوحدي في المقبرة، بس لما بابا مات وأنا صغير شُفت روحه وكلمته، وهو جالها في الحلم و...

- هو إحنا نقدر نطلع في الحلم؟

- للناس اللي بتحبوهم بس. بابا طلع لجدتي وقالها إني مش عيان ومش كداب، قالها ابني ربنا مديله نعمة مش عند غيره. ومن ساعتها وهي بتدافع عني وبتقف لماما. بس كده كده أنا كنت وصلت لمرحلة كدبت فيها على ماما وعلى نادية وقلتلهم إني بطلت أشوف أي حاجة عشان أخلص من وجع الدماغ ده كله.

- هي نادية برضو تفكيرها زي مامتك؟

- لأ، نادية مش بتؤمن بالخرافات والأعمال والدجل زي ماما، لكن برضو مش مقتنعة بإن فيه حاجة اسمها أرواح نقدر نشوفها. ما كانتش بتعاملني على إني ملبوس على قد ما بتعاملني على إني بافبرك الحكايات دي عشان ألفت الانتباه ليَّ، وكأن دي طريقتي في التعبير عن حزني على بابا، وفقداني لاهتمامه بيَّ بعد موته. بس الكلام ده كله كان زمان، دلوقتِ أنا باعرف أحتفظ بأرواحي لنفسي، وما باحكيش لحد على اللي باشوفه، غير قطز وجدتي عند اللزوم.

انبعث صوت جدتي في نفاد صبر من المطبخ:

- نوووووووح! لو ما جيتش هاخلص مربى التوت كلها.

- جاي يا سونة.

نهضت من سريري، فقالت بُشرى:

ـ مش هتكملِّي باقي قصتك؟

ـ هافطر وأجيلك، معلش أصل لما مربى التوت تناديني لازم ألبي.

قد أتظاهر بالضيق والانزعاج، لكنني أحب التحدث مع أرواح الموتى، فهي وحدها التي تفهم ما لا يقدر الأحياء على استيعابه.

القضية الثانية

كريم كراميل

١

أصبحت تالا الصغيرة صاحبة الضفيرتين كالمدمن الخطِر.

فور أن وصلت شقة نادية، فتحت ذات الأعوام الخمسة الباب، وجذبتني من يدي بحماس المجانين إلى غرفتها التي تمتلئ حوائطها الوردية بملصقات الباليرينات النحيفات، ثم همست لي وهي تتلفت حولها كاللصوص:

- جبت الحاجة؟

أخرجت من جيبي السكاكر التي تعشقها ولوح شوكولاتة كبير، فابتسمت كاشفة عن غمازتيها الملائكيتين ثم قبَّلتني، فقلت لها:

- هتخبي الحاجات دي فين يا زئردة؟

- في الدبدوب.

اتجهت صوب دمية دب كبير، وفتحت السَّحّاب الخلفي للدمية ثم دفست السكاكر وسط القطن المنفوش، وأعادت غلق السَّحّاب قائلة:

- إوعى تقول حاجة لمامي!

- عيب عليكِ، هو أنا تلميذ.

فتحت نادية الباب بغتة كالمخبر الغشيم، فراحت تالا تعانق دميتها تلقائيًّا حتى لا تشك بها والدتها، لكن نادية نظرت إلى كلينا من خلف نظارتها الكبيرة قائلة بنبرة شك وارتياب:

- بتعملوا إيه؟

أسرعت تالا مجيبة ببراءة كاذبة:

- كنت باورّي نوح دبدوبي الجديد.

- وهو ده وقته؟ يلّا، الغدا جاهز.

***

في الغالب، لا تدعوني نادية إلى الغداء إلا إذا كانت تحضر رواية بوليسية جديدة مع زوجها، وتود الحصول على معلومات أو تعديلات تقنية تخص أسلوب المباحث.

وقد كان ما توقعته، فبعد أن أكلنا الطعام المحروق جزئيًّا، واحتسينا الشوربة اللاذعة ذات الملح الزائد، وضربت نادية التوأمين اللذين نعتا طهيها بـ«القرف» فبصقا ما أكلاه على السجادة الجديدة، وتذمرت تالا من طعم السبانخ الذي

أقسمت مرارًا وتكرارًا أنها تمقته حتى النخاع، وتبع ذلك تجاهل طارق للزيت المتقطر من جناح الدجاجة المحمرة التي يأكلها؛ لملمت نادية الأطباق، واحتجزتني مع زوجها في غرفة السفرة بعد أن أعدت ثلاثة أكواب من القرفة بالحليب التي أقبل عليها طارق بينما قلت لها وهي تناولني كوبًا:

- ما باحبش القرفة.

- دي مفيدة جدًا. اشرب، اشرب.

- هو أنا عيل من عيالك عشان تشربيني بالعافية؟!

رمقتني رافعة حاجبها الأيمن ومغلقة عينها اليسرى وقد اتسع ثقبا أنفها وكادت أن تُخرج نيرانًا من فمها كالتنين المجنح، فآثرت السلامة وسلكت مسلك طارق:

- حاضر.

أخذت كوب القرفة الساخن فابتسمت برضا، وراقبتني كمن ينتظر ضحيته لتبتلع السم:

- ها؟ حلوة؟

- إنتِ أكيد مش جايباني عشان أقولك رأيي في القرفة باللبن اللي إنتِ وجوزك بتضربوها حقن دي! انجزي عشان عندي شغل.

- عندك حق.

سحبت الكوب من يدي قائلة:

- خلينا نوفر الوقت. أنا وطارق عايزينك...

قاطعتها ضجرًا مكملًا جملتها المبتذلة والمعهودة في كل عام قبل اقتراب موعد معرض القاهرة الدولي للكتاب:

- تبص على اللي إحنا كاتبينه. وريني يا أختي.

فتحت حاسوبها المحمول ووضعته أمامي على نَص من أربعين صفحة، فقلت:

- أنا هاقرا كل ده؟!

- لأ، الحتة دي بس.

حددت لي خمس صفحات عن ضابط في المباحث الجنائية يتفحص موقع الجريمة، وقد امتلأ المشهد بالأخطاء التي يقع فيها مخرجو السينما ومؤلفو الروايات البوليسية، فعلَّقت قائلًا:

- أنا فاهم إن قصدكم تطلعوا الظابط رِوش، بس محدش بيولع سجاير ويرمي الطفي على السجادة في موقع الجريمة، ولا بيقلِّب في الجثة كده، وما بنلمسش أي حاجة في الشقة من غير جوانتي وتحت نظر الطب الشرعي. كده

موقع الجريمة اتلوث وبصمات الظابط بقت في كل حتة.

قال طارق:

- على فكرة، أنا قلتلها كده بس هي...

أخرسته نظرة نادية المرعبة التي حدجته بها، فبلع لسانه حفاظًا على سلامته، بينما سألتني:

- طب فيه إيه تاني؟

- مش بنحرك أي دليل إلا لما يتصور في المكان اللي لقيناه فيه، ولو أدلة بيولوجية مش بنحطها في كيس بلاستيك عشان بيعمل رطوبة ممكن تبوظ الدليل، النوعية دي من الأدلة بنشيلها في ظرف مصنوع من ورق مخصوص.

ارتشف طارق قرفته مضيفًا:

- طب والله أنا قلت إن رطوبة البلاستيك هـ...

قاطعته نادية بضيق:

- إنت بتكتب ملاحظاته ولّا مقضيها تطبيل؟!

- باكتب أهو والله.

قالها منكبًا على دفتره العملاق الذي يشبه دفاتر السجل المدني.

- لقيت حاجة تانية يا نوح؟

- لأ. الموضوع شكله مشوق بس بطلوا غلطات الهواة دي وركزوا شوية.

- إنت هتتنطط علينا عشان معلومتين. أقسم بالله أنا أقدر...

قاطع توبيخها المتعجرف لي صوت شيء زجاجي تهشم في الصالة، فاقتربت نادية من الباب صائحة:

- كسرتوا إيه يا ولاد الـ...

استوقفها طارق قائلًا:

- استني، أنا هاشوف فيه إيه.

خرج وأغلق الباب خلفه، فقررت أن أستغل الفرصة لأهمَّ بالرحيل قائلًا:

- طب أتكل أنا على الله قبل ما تبلعي عيالك.

- استنى، عايزاك في موضوع. خالتو سوسن عاملة حفلة عشان عيد ميلاد ماما و...

- جوز أمك هيبقى موجود؟

زفرت قائلة:

ـ ما خلاص بقى يا نوح! إحنا بقالنا سنين على الوضع ده و...

ـ وكلنا مستريحين. هي مرتاحة مع جوزها الدكتور فازلين وأنا مرتاح مع نفسي.

ـ بس دي ماما يا نوح. المفروض تتقبل إن إنت وجوزها تقعدوا على ترابيزة واحدة عشان...

ـ مش إنتِ متقبلة إن واحد تاني ياخد مكان أبوكِ الشهيد و...

احتدت نبرتها قائلة:

ـ ما تلخبطش في الكلام يا نوح!

ـ لا ألخبط ولا ما ألخبطش يا نادية، ريحي دماغك مني!

ـ بكرة تبقى أب وتعرف يعني إيه ابنك اللي من لحمك ودمك يقاطعك.

ـ أنا مش مقاطع أمك، أنا ببساطة مش هابقى في مكان واحد مع جوزها ده.

ـ كده ومش مقاطعها؟! إنت آخر مرة سألت عليها كانت إمتى؟

- ما هي كمان مش بتسأل عني!

- هو الند بالند؟

- إذا كانت هي كأم قلبها قسي عليّ، أنا مطلوب مني إيه؟

- مطلوب إنك تكبر وتنضج وتطلَّع السواد اللي جواك من ناحيتها.

ضحكت متهكمًا:

- سواد؟! أنا ممكن أسامح أمك على إنها عيِّشتني طفولة مقرفة كلها شعوذة ودجالين وجهل، وطلعتني ملبوس قدام عيلتها، وخالاتي بقوا بيخافوا ألعب مع عيالهم وبيشغلوا قرآن لما أدخل بيوتهم كإني شيطان، إنما إنها تنسى أبويا وتتجوز بعده بسنة! آسف!

زفرت نادية وكأن كلماتي قد أرهقتها، وقالت بهدوء:

- سامح يا نوح، سامح عشان ترتاح.

- السماح صعب يا نادية، ولو ما اتطلبش يبقى مستحيل. أمك عمرها ما اعترفت بغلطتها في حقي، ولا في إنها فرطت فيّ عشان تتجوز! هي اللي اختارت. أنا قلتلها لو اتجوزتِ هاعيش مع تيتة، وهي اختارته!

- مش من حقك تخيِّرها بينك وبين سعادتها. ماما ليها

غلطات كتيرة بس بتحبنا بجد وبتخاف علينا من الهوا الطاير و...

ـ نادية! أنا بطني قلبت من الحوار البايت ده، مسائلك مربى بقى وما تفصلنيش منك!

ـ خلاص يا نوح اتفلق! بكرة تندم على الأيام اللي بتضيَّعها في الخصام دي!

دخل طارق وهو يلهث متوترًا، وأعلن بلا أي مقدمات:

ـ يحيي وياسر فتحوا النيش وكسروا طقم الصيني!

تحولت ملامح نادية الناعمة إلى وجه ساحرة شمطاء، وبرزت عروق عينيها الحمراء وهي تصرخ:

ـ إيييييييه؟! النيييييش؟!

ـ أنا حاولت أتدارك الأمر بس هما خرجوا عن السيطرة.

صاحت صيحة تشقق لها السقف واهتزت لها الأرض وارتعشت لها المصابيح:

ـ النيييييش! النيييش يا كلاااااب!

خرجت تغلي من فرط ثورتها العارمة، بينما تنفس طارق الصعداء وعاد إلى دفتره العملاق قائلًا:

- أنا كده عملت اللي عليَّ.

نظرت إليه بازدراء قائلًا:

- شعورك إيه وإنت أب واطي بيسلم عياله تسليم أهالي؟

- مش أحسن ما يسلموني أنا؟ دول مش بس فتحوا النيش المبجل، دول كمان كسروا طقم الصيني اللي بالشيء الفلاني!

- ما تلعِّبوهم رياضة عشان يخفوا الهيبرة دي.

- مش موضوع رياضة، هما كده، يتفرجوا على أي فيلم أكشن ولَّا كارتون سوبر هيرو فيتجننوا ويقلدوه ويكسروا في الشقة ويلطشوا في أختهم الغلبانة!

أتى صوت بكائهما مخلوطًا بسباب ولعنات نادية، فابتسم طارق وقال برضا:

- والله الواحد بيتوغوش لو عدى يوم كده من غير ما نادية تطحن العيال ضرب!

* * *

لا أتذكر مرَّة دخلت فيها المكتب دون أن تفوح منه رائحة الطعام، فقطز يسلي وقته بشيئين لا ثالث لهما: القراءة، والطعام. لمعدته قدرة خارقة على هضم أي نوع من الأكل، ومع ذلك وزنه لا يزيد جرامًا واحدًا!

كان كعادته يأكل على مكتبي حتى لا يتسخ مكتبه هو، فعلى الرغم من عشقه لأكل الشارع وعشوائية انتقائه للطعام، فإنه في غاية النظافة والترتيب، ولا يطيق أن يجد بقعة على مكتبه، لذا فلا مانع لديه من تحويل مكتبي إلى سفرة.

خلعت سترتي وجلست على المكتب أمامه زافرًا:

ـ عامل حسابي في الأكل؟

أشار إلى الكيس البلاستيكي الذي يتألق عليه شعار «فلفلة» البرتقالي، ففتحته لأجد ثلاث شطائر كبيرة، التقطت واحدة منها، بينما قال هو:

ـ أنا قلت أكيد مش هتاكل من طبيخ نادية وهتيجي جعان.

ـ أكلها يقرف الكلب! مش فاهم طارق مستحمل إزاي!

ـ أكيد مجسات التذوق عنده خربانة. صحيح، هتعمل إيه النهارده؟

ـ هاعمل إيه في إيه؟

ـ مش هتحتفل بالسنة الجديدة؟

ـ يعني ألبس طرطور مكتوب عليه ٢٠١٦، ولّا أنفخ بلالين

هيليوم؟!

- إيه الشُّكر ده يا نوح؟!

- عايزني أقولك إيه؟ الناس كلها بتحتفل وترقص وتتبسط وإحنا في القسم بناكل شاورما فراخ!

- مالها شاورما الفراخ؟! طِعمة وبتحتوي السناجل اللي زينا.

مسح فمه بالمناديل المبللة مضيفًا:

- بمناسبة السنجلة، مش بتتمنى تقابل فتاة أحلامك في السنة الجديدة؟

- فتاة أحلامي؟! الكلمة دي اتلغت من ٩٥.

- يا سيدي خلاص، مش بتتمنى تلاقي المُزَّة الفتاكة؟ حلو كده؟

- بلا مُزة بلا زفت! أنا مش عايز من السنة دي غير حاجتين اتنين.

- ارغي.

- الترقية، ومنتج يقضي على الصلع. شعري بدأ يخف وإحنا عيلة رجالتها صُلع و...

فُتح الباب بهمجية ليدخل الرائد صلاح الشبكي قائلًا

بسخافته المعهودة:

- هابي نيو يير لسيادة النقيب لمونة وزميله النقيب نسكويك.

هنا أدركت أن لي أمنية ثالثة: رصاصة في منتصف جبهة صلاح ترديه قتيلًا!

لم أجبه، بينما همس قطز: «هابي زفت على دماغك».

جلس اللزج على الكرسي، ومد يده إلى كيس الطعام بلا استئذان ساحبًا شطيرة تفحص محتوياتها قائلًا:

- إيه ده؟ بانيه؟ إيه أكل الفرافير ده يا ابني؟!

اختطف قطز الشطيرة من بين أصابعه القصيرة بعنف قائلًا:

- خلاص، ما تاكلش!

استعاد صلاح الشطيرة بغوغائية قائلًا:

- يا عم باضحك معاك.

ضحك ضحكته الصفراء، ثم قضم بوحشية ومضغ بطريقة حيوانية، وأخذ يتكلم والطعام يتطاير من بين شفتيه والمايونيز يسيل من جانب فمه:

ـ هتسهروا فين الليلة دي؟ أصدقاء السوء هياخدوني كباريه إنما إيه!

أخذ قضمة أخرى، ثم أكمل كلامه متباهيًا:

ـ إبليس يتكسف يقعد فيه. وهتحيي السهرة الرقاصة الكرباج دي... اسمها إيه؟

لم نعره اهتمامًا، لكنه استطرد:

ـ مش مهم اسمها، المهم إنها هتبقى سهرة ولا جهنم الحمرا.

قلت ضجرًا:

ـ طب ما تاخد الأكل وتاكله في الطريق عشان تلحق تقعد في جهنم صف أول؟

ـ ما أنا خلاص خلصت.

كوَّر ورقة الشطيرة وألقى بها أرضًا، ثم مسح فمه بكُم قميصه الأحمر الرخيص مضيفًا:

ـ أنا سايب القسم أمانة في إيديكم يا ولاد، هه. عايز الأمن يفضل مستتب لحد ما أرجع.

نهض متجهًا إلى الباب:

ـ سلام يا كئيب منك له.

خرج بضحكته النابحة وعطره المزعج، بينما قال قطز منتشلًا ورقة الطعام من على الأرض:

ـ ياكش تموت هناك عشان تبقى موتة نجسة!

* * *

عندما أشعر بالضجر أخرج من المكتب وأتمشى في طرقات ونواحي القسم. أنزل عدة سلالم وأصعد أخرى، بينما يظل قطز يقرأ في أحد الكتب التاريخية أو الروايات البوليسية، أو الرومانسية سرًّا.

في هذه الليلة كان الوضع هادئًا وآمنًا، فما من جريمة قد تُرتَكب في مثل هذا التوقيت الذي ينشغل فيه الناس في انتظار العد التنازلي كي تدق الساعة الثانية عشرة مستقبلين سنة جديدة أجهل ملامحها، ولا أنتظر منها سوى ترقية وخطوة أفضل في مستقبلي المهني.

في طريق عودتي إلى المكتب، والسماء تتفجر بالألعاب النارية التي لم تتوقف عن الفرقعة لقرابة خمس عشرة دقيقة، إذ بقطز يناديني من الشرفة متعجلًا:

ـ تعالَ، فيه بلاغ جالنا.

ـ ما تقولش الراجل العجوز اللي بيشتكي من الدوشة ده،

تاني!

- دوشة إيه؟! دي جريمة قتل!

- قتل؟! حد يتقتل دلوقتِ؟!

- ده مش أي حد، دي مرات يوسف المنياوي.

- الاسم ده مش غريب عليَّ.

- يا عم ده المنتج اللي كان متجوز نادين المندلي الممثلة الشقرا أم عيون عسلي دي.

صُدمت:

- إيه؟! يعني نادين المندلي اتقتلت؟

- مش نادين اللي ماتت. نادين ويوسف اتطلقوا من سنة. إنت مش متابع ولّا إيه؟

- وأنا مالي أنا مين اتجوز ومين طلق! مين القتيل دلوقتِ؟

- مُزة بُلطية كده بتطلع مع يوسف في كل حتة، دي اللي اتجوزها بعد نادين، ودي اللي اتقتلت.

حك ذقنه في طريق خروجنا من القسم مضيفًا:

- أكيد نادين قررت تنتقم من يوسف عشان اتجوز غيرها. أصل قصة حبهم كانت عنيفة.

لا يكف قطز عن تحليلاته العاطفية ذات الطابع الدرامي!

٢

هكذا قصوا علينا الأمر، وهكذا سأقصه عليك:

في شارع «بهجت علي» في الزمالك، اعتاد يوسف المنياوي الاحتفال بالسنة الجديدة في فيلته الفارهة ذات الأعمدة الإغريقية العالية، والسقف الذي يأخذ شكل القُبة، والحديقة التي تزدحم بالأشجار. يجتمع المشاهير في الصالة الرخامية الملساء أسفل الثريا المنيرة، ثم تُطفأ الأضواء، ويبدأ العد التنازلي حتى تدق الساعة الثانية عشرة معلنة عن مولد عام جديد.

لكن هذه المرَّة أعلنت الساعة عن جثة!

بعد أن هدأت الموسيقى، وأطفئت الأضواء وبدأ العد، سمع الحضور صريخًا نافذًا من شرفة الطابق الثاني للفيلَّا، وقبل أن يندفعوا نحو الصوت إذ بهم يرون جسد ديدا زوجة يوسف يسقط من شرفة غرفتها ليستقر فوق درجات سلم مدخل الفيلَّا، فيتهشم الرأس، وتلفظ أنفاسها الأخيرة.

* * *

كانت جثة لامرأة قصيرة القامة في الثلاثينيات، ذات جسد ضئيل لكنه ملفوف كثير الانحناءات، لها شعر قصير وعينان واسعتان وساقان آية في الجمال، ترتدي ثوب نومها الأحمر

القصير الذي لا يُخفي أيًا من مفاتنها. سالت الدماء من رأسها على السلالم الرخامية في المدخل، لكني لاحظت طعنة في بطنها.

ظل قطز ينظر إلى الشرفة العالية التي سقطت منها، ثم إلى جثتها التي التف حولها رجال الطب الشرعي والبحث الجنائي ملتقطين صورًا ومحددين موقعها، حتى قال:

- ده مين اللي شقلطها في الجو كده؟

- أكيد نفس الشخص اللي طعنها في بطنها.

أضاف حسني المستكاوي، بينما حُمِلت جثة ديدا إلى المشرحة:

- وفي ضهرها كمان. فيه طعنة في البطن والضهر. هنشتغل في الجثة وهنعرفكم الجديد.

بدأنا التحقيق مع الحضور وقد سمعوا ورأوا جميعًا المشهد نفسه: صريخ، ثم سقوط الجثة فوق سلالم المدخل. وكانت المطربة الشهيرة نيللي، ذات العينين الواسعتين والشعر الغجري، جالسة على كرسي في الصالة ترتجف ودموعها تنهمر وهي تقول بصوتها الرقيق:

- أنا طلعت الجنينة بعيد عن الدوشة عشان أكلم جوزي في

أمريكا وأقوله هابي نيو يير، فسمعت صريخ، بابص لقيت ديدا بتصوَّت من بلكونة أوضتها وبتقول الحقوني، وفجأة سندت على السور كأنها أغمى عليها أو نامت، وبعدها وقعت بالمقلوب كأن حد رفع رجليها من على الأرض، ونزلت على السلالم ودماغها اتفتحت!

أخذت تبكي مرتعشة:

ـ المنظر كان فظيع! مش قادرة!

قال قطز الرومانسي:

ـ معلش يا مدام نيللي. هدي نفسك. دا أنا من أشد معجبينك والله.

قدم لها منديلًا، فأخذته ومسحت دموعها بطرفه قائلة برقة:

ـ ميرسي خالص.

ـ لا ميرسي على واجب. والله لولا الظروف كنت أخدت معاكي سيلفي.

ضحكت نيللي، فأضاف مستخفًّا ظله:

ـ أيوه كده، اضحكي خلي الشمس تطلع. أنا باحب أغانيكِ أوي.

ثم راح كالأبله يدندن إحدى أغانيها التي لا معنى لها ولا إيقاع، فوكزته هامسًا:

ـ إنت أهطل يله؟ فين هيبة الشرطة؟!

ـ ما هي حاجة تنقط برضو، يعني يوم ما أشوف كل النجوم دول، يبقى عشان تحقيق في جريمة قتل؟!

تجاهلت صبيانيته، والتفت إلى نيللي قائلًا بنبرة جافة:

ـ ما شُفتيش حد في البلكونة قبل أو بعد القتيلة ما وقعت؟

ـ لأ، ما شُفتش حد خالص.

ـ تمام، شكرًا.

ما إن التفتنا وراءنا، بعد أن انتهى استجواب نيللي، حتى وجدنا يوسف المنياوي يقترب منا. كان رجلًا في مقتبل الأربعينيات، حليق الذقن، طويل القامة، يرتدي نظارة باهظة الثمن وبدلة سوداء أنيقة تكشف عن جسده الممشوق، وكانت له ملامح راقية لا يعكر صفو شبابها سوى شعره الرمادي الخفيف الذي يكاد لا يُرى بالعين المجردة.

بدا مذهولًا ومصدومًا، ولكن ليس بالقدر الذي يجب أن يكون عليه من قُتلت زوجته للتوِّ.

ـ البقية في حياتك يا أستاذ يوسف.

ـ حياتك الباقية. ينفع ضيوفي يمشوا دلوقتِ ويبقوا ييجولكم القسم بكرة، عشان الوقت اتأخر؟

اندفع قطز قائلًا:

ـ أكيد طبعًا، إحنا برضو تهمنا راحة ضيوفك.

ـ أنا بس مش عايز شوشرة أكتر من كده، كفاية اللي الصحافة هتكتبه و...

قاطعته غير مبالٍ بقلقه من الصحافة الصفراء:

ـ حضرتك كنت فين لما المدام وقعت؟ ضيوفك بيأكدوا إنك ما كنتش في الصالة.

أجاب بهدوء:

ـ زينب طلبت مني أطلع أوضة ديدا.

ـ زينب مين؟

ـ الهاوس كيبر.

ـ يعني حضرتك طلعت أوضة المدام في نفس اللحظة اللي وقعت فيها؟

ـ مش بالظبط. أنا وصلت «الكوريدور»، سمعت صريخ،

ولقيت الباب مقفول من جوه، خبطت، محدش فتح، فكسرت الباب، لكن ما لاقيتش حد في الأوضة فنزلت تاني بسرعة.

- الجريمة حصلت والباب مقفول من جوه، وإنتو لما دخلتوا ما لقيتوش حد؟

- مظبوط.

- الأوضة لها باب واحد؟

- أيوه.

سأله قطز باهتمام:

- بتشك في حد معين؟

- أنا مليش أعداء، الناس كلهم حبايبي.

- والمدام؟

- لها مشاكل الستات العادية اللي عمرها ما تؤدي للقتل.

نظر حوله ثم قال:

- لو تسمحولي بس أقول لضيوفي يروّحوا وأرجعلكم تاني.

هز قطز رأسه ببشاشة، وأجابه مرحّبًا:

- طبعًا طبعًا، اتفضل.

ألح سؤال على خاطري، فسألت يوسف قبل أن يعود إلى ضيوفه:

- لحظة يا أستاذ يوسف، هو إيه السبب اللي ممكن يخليك تسيب ضيوفك في أهم لحظة في الحفلة وتسمع كلام الشغَّالة وتطلع أوضة ديدا؟

حك أنفه قائلًا بعينين زائغتين:

- ما لحقتش أسألها.

ثم أدار ظهره ليبتعد عنا مسرعًا، وحينها همست لقطز بيقين مطلق:

- الراجل ده بيكدب.

- عشان حك مناخيره، صح؟

هززت رأسي موافقًا، فتلك هي بديهيات لغة الجسد.

أسهب قطز في الحديث محللًا الموقف:

- الصراحة موقفه زفت، ما هو مش منطقي يعني إن واحد عامل حفلة متكلفة كده، ويسيبها في ذروتها عشان الشغَّالة نادته، وأكيد مش صدفة إنه يختفي في نفس لحظة وقوعها من البلكونة!

ـ اللي مش منطقي أكتر هو إن مراته اللي بتطلع معاه في كل المناسبات والحفلات ما تبقاش حاضرة الحفلة المعمولة في بيتها!

ـ مش حاضرة إزاي؟!

ـ دي كانت لابسة قميص نوم! إيه اللي يخليها تسيب حفلة جوزها وتطلع تنام قبل الكاونت داون؟!

***

ارتدينا القفازات، ودخلنا حجرة تحولت من غرفة نوم أنيقة وكل ما بها غالي الثمن وقابل للكسر إلى موقع جريمة يكتظ برجال البحث الجنائي.

يتوسط الغرفة سرير عالٍ، وفي أقصى اليمين يوجد حمَّام بابه مغلق، وعلى اليسار الشرفة الكبيرة التي سقطت منها الضحية، وكان سور الشرفة عاليًا، لا شك أنه يصل حتى بطن الضحية قصيرة القامة، وهذا ما تؤكده بقع دمائها على السور، ثم رقعة دائرية كبيرة من الدم على الأرضية، حيث طُعنت في ظهرها قبل أن تُلقى من الشرفة.

تابع حسني وفريقه جمع الأدلة، وقد لاحظنا كوبًا زجاجيًا مكسورًا بجوار الحائط، وطبق فاكهة كبيرًا تناثرت ثماره على السجاد التركي، بينما استقر الطبق بالقرب من السرير الذي

تدلت أطراف ملاءته على السيراميك البارد.

علقت على ما لاحظته قائلًا:

- كان فيه خناقة.

هز قطز رأسه موافقًا، بينما أشار إلى تفاحة حمراء ملقاة أرضًا:

- التفاحة نصها متقشر.

أدركت ما يرمي إليه، فدققت النظر متفقًا معه:

- يعني طبق الفاكهة كان فيه سكينة.

التفت إلى أحد رجال البحث الجنائي وسألته:

- فيه حد لقى سكينة هنا؟

- لأ.

أعلن قطز مستنتجًا:

- يبقى هو ده سلاح الجريمة اللي اتطعنت بيه الضحية.

- والسلاح ده مش موجود!

نظرت إلى آثار الأقدام التي تحمل القليل من الطين على السجاد باهظ الثمن، ثم تتبعتها بنظري لأجد أثرًا آخر عند

باب الحمَّام، فتوقفت عند عتبته لأجد بقعة داكنة من الدماء.

لقد طُعنت ديدا الطعنة الأولى في بطنها في هذه المنطقة بالتحديد، ثم ركضت في اتجاه الشرفة لتستنجد، فتلقت الطعنة الثانية في الظهر ثم أُلقيت من الشرفة.

سألت حسني وأنا أفتح باب الحمَّام:

ـ لقيتوا حاجة في الحمَّام؟

ـ نفس آثار الرِّجلين اللي على السجاد موجودة فوق طرف البانيو.

نظرت إلى الحمَّام النظيف بشكل مبالغ فيه، ولم أهتم بتفاصيله الراقية، بل تعلّق نظري بالنافذة الكبيرة المفتوحة فوق حوض الاستحمام.

اقتربت من النافذة الكبيرة فاكتشفت أنها تطل على شجرة ظل متينة الجذع والفروع، ويسهُل تسلقها، بحيث إذا استند القاتل على طرف حوض الاستحمام وجلس على سور النافذة يمكنه أن يصل بسهولة إلى الشجرة التي تؤدي إلى الجزء الخلفي من الحديقة المطل على الجراج الخاص بالفيلَّا.

هكذا اتضحت طريقة الدخول والخروج دون الاستعانة

بالباب.

ديدا كانت نائمة في غرفتها، وأغلقت الباب من الداخل ـ لسبب لم أتبينه بعد ـ ثم تسلق القاتل الشجرة إلى نافذة الحمَّام، ومنه إلى الغرفة، وقتلها، ثم خرج بالطريقة نفسها، وما يثبت صحة نظريتي تلك الآثار في الحمَّام التي تحمل بقعًا من الطين، ولا شك أن مصدرها الحديقة.

دققت النظر أكثر، فوجدت مسمارًا بارزًا في طرف النافذة الخشبي، جعلني أخمن أن مَن تسلق الشجرة ودخل من النافذة لا شك أنه أُصيب بجرح، أو على الأقل تمزق بنطلونه.

ـ بص لقيت إيه؟

قالها قطز مشيرًا إلى علبة السجائر والولاعة الموجودة عند طرف السرير، وواصل موضحًا:

ـ علبة كليوباترا، وولاعة بلاستيك رخيصة! ما أظنش أن دول يخصوا يوسف.

وضعت يدي في جيبي وقلت:

ـ تفتكر دي الحاجة المهمة اللي الشغَّالة شافتها وندهت يوسف عشانها؟

ـ نادته عشان علبة كليوباترا؟!

ـ عشان اللي بيشرب الكيلوباترا يا أهطل!

ـ كيييلوباترا؟! اسمها كلييوباترا. بطلوا جهل بقى!

ـ طب ركّز يا سفير ماركات السجاير في الوكسة اللي إحنا فيها.

ـ ما أنا مركّز أهو. إنت قصدك يعني إن مراته كانت بتخونه والشغّالة شافتهم وندهت على يوسف عشان يقفشهم؟

هززت رأسي مؤكدًا ما استنتجه، فحك ذقنه مردفًا:

ـ فدمه اتحرق، وما قدرش يسيطر على نفسه، فسحب أول سكينة شافها قدامه و...

ـ وطعنها مرّة عند باب الحمّام فجريت على البلكونة تصرخ، فقام طاعنها الطعنة التانية وراميها من فوق.

نظرت نحو الشرفة متخيلًا المنظر من الداخل، فوجدت ثغرة:

ـ بس يوسف طويل أوي. لو هو اللي عملها، نيللي كانت هتشوفه وهو واقف ورا ديدا! لو مشينا على شهادة نيللي يبقى القاتل لازم يكون في طول ديدا أو أقصر منها، بحيث إن محدش يشوفه وهو واقف وراها، ويكون خفيف الحركة فيقدر يهرب من شباك الحمّام ويتسلق الشجرة برشاقة.

- شباك الحمَّام؟!

نظر قطز في اتجاه الحمَّام فلاحظ النافذة الكبيرة المفتوحة:

- يعني إحنا دلوقتِ بندوَّر على واحد قصير ورفيع؟

- وغالبًا بنطلونه مقطوع.

***

يعمل في الفيلَّا بستاني مُسن، وسفرجي، وثلاث خادمات تحت إشراف زينب كبيرة الخدم التي لم نلقها بعد، لكننا كنا محظوظين لاستجواب ألطاف، أصغر الخادمات سنًّا وأكبرهن حجمًا وأكثرهن كلامًا حيث وهبها الله لسانًا نشطًا لا يعرف الملل:

- أنا هاحكيلك يا باشا. وداد كانت...

قاطعها قطز مستفهمًا:

- وداد مين؟

- يييييييه يقطعني، قصدي الست ديدا. ما هي أيام ما كانت دادة كان اسمها وداد، بس بعد ما البيه اتجوزها ونضفها بقت ديدا هانم.

مصمصت شفتيها بغِل:

- حظوظ!

سألها قطز منبهرًا:

- ديدا كانت الدادة؟!

- أوماااااال! أنا هاحكيلك من الأول.

أخذت نفسًا عميقًا استعدادًا لماراثون النميمة الذي ستبدأه، ثم انطلقت بلا هوادة:

- أيام ما البيه كان متجوز النجمة السُّكرة نادين هانم، وداد كانت الدادة بتاعة الهانم الصغيرة فريدة بنت نادين ويوسف بيه. الست نادين كانت مهتمة بالسيما، وأهملت البيه في الفترة الأخيرة، قوم وداد الحية تلف على يوسف بيه، وتلدغ الإيد اللي اتمدتلها، وتتدحلب وتخليه يتجوزها عشان حِتة طبق كريم كراميل!

- كريم كراميل؟!

- ما أنا جايالك في الكلام. الهانم الصغيرة بتعشق الكريم كراميل زي عينيها، لكن محدش كان بيعرف يعمله على مزاجها غير اللي ما تتسمى وداد، فقبلوا يشغلوها عشان فريدة هانم شبطت فيها، مش هي لوحدها، ده حتى البيه

اللي كان ما يطيقش زفارة البيض الحيَّة عرفت تحببه فيه، وبعد كده لما نادين هانم كانت مسافرة، وداد غوت البيه ودبسته، ومدام نادين عرفت وكانت خناقة لرب السما، فاتطلقوا، واتجوز وداد المقشفة. تقولش عاملاله عمل يا باشا!

علَّقت بعد أن قررت ألطاف أن تخرس قليلًا لتستعيد أنفاسها اللاهثة من أثر النميمة:

- ده إنت معبية منها بقى؟

- هو فيه حد في البيت ده طايقها؟ دي ما رحمتش لا صغير ولا كبير، حتى البيه نفسه في الفترة الأخيرة بقى بيتخانق معاها ليل نهار، وكان هيطلقها. أنا سمعته إمبارح بودني وهو بيقولها نتطلق وآديكِ الفلوس اللي إنتِ عايزاها. أصل شكله كده والله أعلم يعني حن لمدام نادين. أنا كنت باسمعه كتير بيتسحب عشان يكلمها في السر، ووعدها إنه هيطلق اللي ما تتسمى. بس وداد قالتله تطلقني إزاي وأنا حامل. البيه وشه جاب ألوان، وقرر إنه يستحملها عشان العيل اللي في بطنها. المعفنة بقى مش تتعظ وتصلَّح معاملتها مع البيه؟ أبدًا، كل شوية خناق ونكد. دي المفترية حتى اتخانقت معاه ونكدت عليه في الحفلة.

- إمتى بالظبط؟

- قبل ما يطفوا الأنوار بيبجي نص ساعة. شُفتها متزربنة ويوسف بيه وراها في الطرقة. أنا كنت باجيب الكريم كراميل للهانم الصغيرة في أوضتها، وسمعته بيقولها «إنتِ مش هتبطلي غيرة ونكد؟ ما ينفعش تمشي في نص الحفلة!»، راحت فاتحة فيه ومزعقة وقالتله «يعني طليقتك تبعتلك كلام حب ومش عايزني أتعصب؟!». وبعدها رزعت باب أوضتها والبيه نزل. ولما طلعت من عند الهانم الصغيرة هي قفشتني وقالتلي «روحي يا زفتة جيبيلي كوباية اللبن بتاعتي وطبق الفاكهة»، فجبتهم، ودي كانت آخر مرة أشوفها قبل ما ربنا ياخدها يا باشا.

- سكينة الفاكهة دي شكلها إيه؟

- إيدها بمبي وعليها ورد.

- يعني ملخص الرغي ده كله إن وداد كانت في الحفلة، وبعد كده اتخانقت مع يوسف، وطلعت أوضتها وما نزلتش تاني، صح؟

- أنا عن نفسي ما شُفتهاش نزلت تاني.

- وتفتكري مين ممكن يقتلها؟

- شوف يا باشا، هي منكدة علينا عيشتنا كلنا، بس محدش

مننا يقدر يئذيها، إحنا بنخاف ربنا برضك.

- مش لازم يبقى حد منكم، ما سمعتيهاش بتتخانق مع أي حد من بره الفيلَّا؟

- أقول مين ولَّا مين، هو فيه حد وداد ما بتتخانقش معاه يا باشا؟! ده حتى إمبارح الصبح دبت خناقة لرب السما مع شكرية.

- مين شكرية دي كمان؟

- أختها الكبيرة، شغالة ممرضة في القصر العيني، وكانت بتمرض البيه الكبير أبو الأستاذ يوسف الله يرحمه، وهي اللي جابتلنا المدعوقة أختها تشتغل هنا.

- اتخانقوا على إيه؟

- ما أعرفش، بس تلاقيها كانت عايزة منها فلوس، ما هي اتعودت تغرف من مال البيه وتدي لأختها. أنا لحقت الخناقة في آخرها، وسمعتها بتشرشح وتقول «ده أنا أفضحِك وأشرب من دمك»، أصل شكرية كلبة فلوس وتنهش مصارين اللي قدامها عشان القرش، دي لو لقيتك خمسة جنيه هتاخدك تصرفك. وبعدين بتغير من أختها عشان اتجوزت البيه وبقت في الهلومة دي كلها وهي لأ.

- إنتِ شايفة إن شكرية ممكن تقتل أختها؟

- يمكن يا باشا، دي عيلة بنت حرام ما تعرفش ربنا!

***

طلبنا من يوسف يتصل بشكرية، ويطلب منها الحضور العاجل. وسألته:

- هو حضرتك والمدام اتخانقتوا ليه؟

أجاب بتلقائية:

- غيرة ستات. نادين بعتتلي بوكيه ورد عشان السنة الجديدة، فديدا شافت الكارت واتعصبت.

- بس كده؟

- أيوه. ديدا طبعها عصبي ومخها صغير.

- وهي مش غريبة برضو إن نادين تبعتلك بوكيه بعد الطلاق العنيف اللي حصل ما بينكم؟

- عنيف؟! بالعكس، إحنا طلاقنا كان متحضر جدًّا، وفضلنا أصدقاء عشان مصلحة فريدة.

- أكيد عنيف ما دام سببه إنك اتقفشت مع الدادة.

ارتبك وصاح بي بعصبية لا تليق بملامحه الهادئة:

- إنت إزاي تسمح لنفسك تتدخل في خصوصياتي وتتكلم بالأسلوب السخيف ده؟!

تدخل قطز بدبلوماسيته المعتادة:

- بلاش حساسية يا أستاذ يوسف، إحنا لازم نسألك عن كل تفصيلة عشان أمانك. إنت مش عايز تعرف مين اللي اتجرأ يقتل مراتك في بيتك ووسط ضيوفك؟

زفر حانقًا، وخلع نظارته ليفرك عينيه، ثم لبسها وقال بنبرة متوترة:

- أكيد طبعًا عايز أعرف، بس هو طلاقي له علاقة بالجريمة؟

سألته محاولًا أن أبدو أقل فظاظة:

- وداد لو ما كانتش حامل كنت طلقتها ورجعت لمدام نادين، مظبوط؟

ارتبك ثانية، ثم قال مثبتًا نظارته على أرنبة أنفه:

- ده مين اللي بيطلعلك أسرار بيتي؟

- خلاص يا سيدي، إيه نوع السجاير اللي حضرتك بتدخنها؟ أظن دي بقى مش أسرار بيتك.

استغرب السؤال، لكنه أجابني مترددًا:

ـ أنا باشرب سيجار مش سجاير. إنت ليه...

ـ والمدام بتدخن؟

ـ دافيدوف. ده له دخل بالقضية؟

ـ أومال يعني باسألك ليه؟ هانزل أجيبلكم دخان من الكشك؟!

حدجني قطز ليحذرني من العصبية، فزفرت مجددًا لأسأله سؤالًا جديدًا:

ـ إنت أعلنت حمل مدام وداد؟

ـ لأ، هي فضَّلت نستنى شوية عشان بتخاف من الحسد.

ـ نادين عرفت إنها حامل؟

ـ لأ.

ـ نادين كانت فين في توقيت الحفلة؟

ـ عندها تصوير في أسوان ولسه هترجع آخر الأسبوع.

ـ متأكد إنها كانت في أسوان النهارده؟

ـ متأكد طبعًا.

- طيب، نادي على الهاوس كيبر.

- هو إنت بتشك في حد معين؟

- في الوقت الراهن، كل اللي كانوا في البيت وقت الحفلة بالنسبة لنا مشتبه فيهم.

* * *

انتظرنا في الصالون الذي يغلب عليه اللون الذهبي وتنتشر فيه التماثيل واللوحات الفنية المجردة التي ظل قطز يحدق فيها بإعجاب، بينما أشعلت سيجارة ليروي النيكوتين ظمئي.

علَّق قطز بعدما فرغ من دراسة اللوحات:

- أنا حاسس إن يوسف مش زعلان. بذمتك ده منظر واحد مراته الحامل اتقتلت؟!

- إما إنه ما صدَّق خلص منها، وإما لسه تحت تأثير الصدمة.

- أو هو اللي قتلها عشان يرجع لمراته القديمة.

- اتكى ع الصبر، وما تسبقش الأحداث.

- طب علبة السجاير دي بتاعة مين؟

- أكيد محدش من المعازيم اللي كانوا في الحفلة بيدخنوا كليوباترا. يبقى مش ناقص غير اللي شغالين في الفيلَّا.

الشغالات كلهم قالوا مش بيدخنوا، والكل شهد إن السفرجي فضل في المطبخ طول الحفلة بيلاحق على الأكل بالعافية، والجنايني راجل كبير وما كانش موجود أصلًا، كده فاضل مين؟

- يوسف المنياوي!

- لأ، فاضل السواق.

٣

قطع حديثي مع قطز دخول امرأة قصيرة في مقتبل الخمسينيات، ذات وجه شديد الصرامة، حاجباها الرفيعان معقودان، وشعرها الذي تخللته الخصلات البيضاء معقوص بشدة إلى أعلى، تضغط على فكيها بقوة واضحة تتماشى مع شدة ضمها لقبضتَي يديها المغلقتين، وقد اقتربت منا بخطى ثابتة ورأس مرفوع، ناظرةً إلينا بشموخ ملكة مبجلة، حتى نطقت بنبرة راقية:

ـ بونسوار يا بهوات، مسيو يوسف قالي إن حضراتكم محتاجين مساعدتي.

أشار قطز لكبيرة الخدم بأن تجلس على الكرسي المقابل، فجلست مفرودة الظهر كالموناليزا.

ـ مدام زينب...

قاطعتني بحدة:

ـ مادموزيل، من فضلك.

قلت ضجرًا من التفاصيل التي يصر كل فرد في ذلك البيت الممل أن يدخلني فيها:

ـ يا جناب معالي زينب هانم، الأستاذ يوسف كان فين وقت

الحادثة؟

- كان معايا. طلعنا سلالم الدور الثاني، وإحنا عند «الكوريدور» سمعنا صريخ المرحومة، بس الباب كان مقفول من جوه، وبعد كذا محاولة قدرنا نكسره، لكن لقينا الأوضة فاضية.

- وإيه اللي خلاكم تسيبوا الحفلة وتطلعوا الأوضة من الأساس؟

شددت قبضتيها وقالت بهدوء:

- ده سؤال يقدر يرد عليه مسيو يوسف، و...

قاطعتها بحدة وقد نفد صبري:

- إحنا اللي نحدد مين يرد على إيه!

أضاف قطز برقته المعهودة مع السيدات، وكأنه يعتذر لها نيابة عني:

- إحنا حابين نسمع الإجابة من حضرتك. إيه الشيء الضروري اللي كان لازم يشوفه في أوضة وداد؟

- أقولهم أنا يا زوزو؟

قالتها فتاة في الثانية عشرة من عمرها، تقف عند طرف

الباب ممسكة بدمية كبيرة وطبق كريم كراميل لا أجد فرقًا بينها وبينه، فقد كانت بدينة ورخوة وبيضاء البشرة ولها عينان عسليتان وشعر بُني كالكريم كراميل. مشت بخطوات بطيئة بمنامتها الوردية، حاملة دميتها، ثم جلست على الأريكة بجوار زينب، وأكملت أكل الكريم كراميل قائلة:

ـ أنا اللي ناديت زوزو وقلتلها إني...

قاطعتها زينب بنبرة آمرة:

ـ فريدة! إنتِ إيه اللي صحاكِ دلوقتِ؟

ـ أنا ما نمتش أصلًا. كنت قاعدة باتفرج عليكم من فوق.

التفتت إليّ مضيفة:

ـ كنت باتفرج على فيلم «Saw»، عارفه؟

ـ ده كله دم وتقطيع! مش بتخافي؟!

ـ بابي بيقولي لازم أبقى شجاعة وقلبي جامد، بس أنا أحيانًا باخاف وباجري على أوضته، إحنا أوضنا جنب بعض، لكن أنا مش باخاف كتير.

كررت زينب بنبرة جادة:

ـ فريدة، ع النوم فورًا.

- بس يا زوزو أنا...

- فريييييدة!

كادت المراهقة التي امتلأ وجهها بحَب الشباب أن تنهض، لكني استوقفتها قائلًا:

- خليكِ يا فريدة. قوليلي حصل إيه؟

ابتسمت كاشفة عن أسنانها اللؤلؤية، وجلست بكرشها الممتلئة، وقالت متحمسة:

- وداد الزفتة خلت ألطاف تطلعني أنام و...

قاطعها قطز:

- ليه بتقولي عليها زفتة؟

- أنا باشتمها زي ما هي بتشتمني على طول وبتتريق عليّ وبتقولي يا بغلة، ومرة قبل كده ضربتني زي ما ضربت زوزو على وشها و...

أخرستها زينب وهي تصيح بها بغضب مكتوم، فخرج صوتها كفحيح الأفعى:

- فرييييييييدة!

عضت الفتاة شفتها، ثم بدأت تداعب خصلة من شعرها

المجعد كالإسباجيتي، بينما أضافت زينب:

ـ حضرة الظابط، دي بنت عندها اتناشر سنة، ما ينفعش تحقق معاها.

أجبتها ببرود متجاهلًا خطبتها:

ـ ده مش تحقيق. كملي يا فريدة.

أسهبت الصغيرة في السرد بحماس، وكأن إنصاتي إليها سد جوعها للاهتمام:

ـ طلعت أنام، بس كنت جعانة وطلبت من ألطاف تجيبلي كريم كراميل من اللي في الحفلة، لكن وداد شافتها وفضلت تزعق وتقول «هاتيلي اللبن والفاكهة وسيبي البغلة دي». وبعد ما ألطاف جابتلها الحاجة ومشيت، أنا سمعت دوشة من أوضتها، فبصيت من خرم الباب لقيت سعيد بيزعقلها، وماسك السكينة البينك وبيقولها «هاموتك هاموتك»، وهي قالتله «أنا حوِّلت الفلوس في حسابك».

خفَّضت فريدة صوتها، ثم همست مضيفة بخجل طفولي:

ـ وحضنته وباسته في خده، وقالتله «إنت ملكش غيري، ما تسمعش كلام شكرية».

ارتبكت زينب، لكنها لم توقف فريدة ولم تمنعها من الكلام،

بينما أكملت فريدة حديثها بأسلوب مسرحي تُغير فيه طبقة صوتها وتمثل الكلمات بيديها:

ـ لفيت لقيت زوزو واقفة ورايا وبتقولي «عيب تتجسسي على حد»، لكن أنا قلتلها سعيد جوه مع...

قاطعها قطز مستوضحًا:

ـ سعيد مين؟

أجابته زينب بهدوء:

ـ الشوفير.

أكملت فريدة مسرعة لتعيد تسليط الأضواء عليها:

ـ قلت لزوزو هانادي على بابي بسرعة يشوف بنفسه، بس هي قالتلي «خليكِ في أوضتك وأنا اللي هناديله»، لكن وداد سمعتنا، فلما بابي جه وكسر الباب ما لقاش حد.

التفت إلى زينب مستجوبًا إياها:

ـ هي دي الحاجة الضرورية؟

تنهدت، ثم قالت ببطء:

ـ للأسف! أنا حاولت ألمَّح لمسيو يوسف كتير بشأن...

توقفت عن الكلام لتنظر إلى فريدة التي بدأت تقطع بعض

شعرها وتمضغه بشكل لا يليق بفتاة في سنها، وأسرعت تنهرها:

- سيبي شعرك يا فريدة!

تركت شعرها سريعًا، ثم بدأت تداعب دميتها المحشوة التي تقبض على رقبتها بعنف، فقالت زينب زافرة:

- أنا مش هاعرف أتكلم والبنت قاعدة!

اندفعت فريدة معترضة:

- أنا مش صغيرة! أنا فاهمة وعارفة كل حاجة. وداد كانت بتخون بابي. بابي أصلًا مش بيحبها، ولولا إنها حامل كان طلقها.

التفتت إلينا وهي تهز قدميها بتوتر:

- وداد ضحكت عليَّ لما كانت الناني بتاعتي، وخلتني أحبها عشان تتجوز بابي، ومامي عيطت كتير بسببها!

التفتت إلى زينب قائلة بعصبية:

- قوليلهم يا زوزو إنها مؤذية، احكيلهم إزاي ضربتك النهارده، وكانت هتخليكِ تمشي زي ما مشت حامد، احكيلهم.

همس لي قطز متأثرًا بثورة تلك المراهقة الصغيرة:

ـ أنا شايف إن البنت لازم تمشي.

ـ وأنا شايف إن سعيد لازم يحضر حالًا.

ـ هاطلع أشوفه بنفسي، خِف إنت ع الناس شوية.

* * *

خرج قطز وبصحبته فريدة التي ألهاها بالحديث عن فيلمها المفضل، فنهضت معه حاملةً دميتها المحشوة إلى الصالون.

قالت زينب بضيق:

ـ خلصت أسئلتك؟

ـ هو أنا لسه بدأت؟ إيه حكاية سعيد ده؟

ـ وداد شغلته من كام شهر بعد ما اتبلت على شوفيرنا القديم حامد بإنه اتحرش بيها وعملت دوشة، ومسيو يوسف حَب يريح نفسه فبعت حامد يشتغل عند واحد من أصحابه المهمين، وخلى سعيد الـ...

ـ وإيه شكل العلاقة بين سعيد ووداد؟

صمتت زينب قليلًا، ثم أضافت متعففة:

ـ الشكل اللي فريدة قالت لحضرتك عليه.

ـ وإيه الدليل على ده؟

- أنا وألطاف لمحناها كذا مرَّة وهي بتتسحب لأوضته اللي في الجنينة في أوقات غير مناسبة، وشُفناه وهو طالعلها في عدم وجود مسيو يوسف.

- والموضوع ده بقاله قد إيه؟

- حوالي شهرين.

- يوسف كان حاسس بحاجة؟

- إطلاقًا. المسيو بيثق في الناس كلها، ده أطيب إنسان ممكن تتعامل معاه في الدنيا.

- شكلك بتعزيه أوي.

- أنا بقالي اتنين وتلاتين سنة بادير بيت عيلته، وهو بيعتبرني أخته الكبيرة.

- وما دام إنتِ غالية عليه أوي كده، إزاي سمح لوداد تضربك؟!

- هو ما يعرفش إنها ضربتني.

- ما قلتيلوش ليه؟

- ما حبيتش أزعجه الليلة دي. راس السنة مناسبة مقدسة عند مسيو يوسف، وممنوع طرح أي نوع من المشاكل حتى

لو كانت نهاية العالم.

- ومع ذلك ناديتِ عليه عشان يقفش وداد!

صمتت، لكني كنت أعلم الإجابة مسبقًا، فسهلت الأمر عليها:

- حبيتِ ترديلها القلم اللي اديتهولك، صح؟

رمقتني بكبرياء، وامتنعت عن الرد، فتأكدت من صحة تخميني، وقررت أن أنتقل إلى نقطة أخرى:

- هي ضربتك ليه صحيح؟

أجابتني على مضض:

- عشان اكتشفت كذبتها الكبرى. وداد مش حامل!

أشعلت سيجارة أزعج دخانها زينب وهي تتلقى سؤالي التالي:

- وعرفتِ منين إنها مش حامل؟

- شُفتها النهارده بتاخد دوا خاص باللي شايلين الرحم. أنا بس اللي اكتشفت الحكاية دي عشان أختي الصغيرة استأصلت الرحم وكانت بتاخد نفس الدوا، فتأكدت إن حمل وداد كان كدبة حاولت تنقذ بيها نفسها عشان مسيو يوسف قرر يطلقها ويرجع لمدام نادين، فقررت أواجهها، لكن رد

فعلها كان في منتهى البجاحة!

- وما قلتيش ليه ليوسف إنها مش حامل؟

زفرت في نفاد صبر، وأخذت تشرح لي وكأنني طالب بليد:

- ما أنا وضحت لحضرتك إني ما حبيتش أنكد عليه قبل الحفلة، وما كانش هيجرى حاجة لو عرف بعد ما الضيوف يمشوا، مش بس عشان وداد لازم تنكشف على حقيقتها، لكن كمان عشان مسيو يوسف ومدام نادين ضروري يرجعوا لبعض، وفريدة لازم تتربى وسطهم. وداد هي اللي بوظت كل حاجة بينهم بعد خمستاشر سنة حب وهدوء بين المسيو والمدام! وداد كان لازم تطلع من الصورة عشان السلام يرجع البيت ده تاني!

انتابني الشك!

لهجة زينب وهي تتكلم عن وداد تشي بحجم الكُره والغِل نحوها، ثم إنها تكاد تكون أقصر من الضحية، فإذا وقفت خلفها لن يراها أحد، فضلًا عن أن ولاءها ليوسف وعائلته منقطع النظير، وقد يدفعها حبها للعائلة التي كرست عمرها في خدمتها إلى القتل.

- يعني يوسف ما يعرفش بموضوع عدم حملها لحد دلوقتِ؟

- اضطريت أقوله، لأنه لما شاف وداد ميتة انهار على ابنه اللي كانت حامل فيه. كان لازم أعرَّفه عشان أهديه، ووريته الدوا عشان يتأكد، وفهمته إنها ما تستاهلش دمعة واحدة منه.

هذا يفسر ردود فعله الهادئة وعدم اهتمامه بمعرفة القاتل أو حتى حزنه على زوجته القتيلة.

- صدَّقِك؟

- مش عارفة. فضل ساكت، ما نطقش بكلمة. عمري ما شُفته في الحالة دي. بيتعامل كأن مفيش حاجة حصلت، لا غضب ولا حزن. حالة غريبة من عدم التصديق!

* * *

- موِّتوا أختتشي يا كفرة!

أتى الصوت مجلجلًا غوغائيًّا من الخارج، واقتربت صاحبة النواح الغجري واقتحمت الصالون. كانت امرأة في منتصف الأربعينيات، قصيرة القامة، ناتئة العظام، لها أسنان بارزة من بين شفتيها الرفيعتين، وشعر تختلط فيه ألوان الصبغة الرديئة الأحمر والبُني والبرتقالي.

رفعت يديها بأداء مسرحي، فخشخشت أساورها الذهبية

في ذراعيها الرفيعتين وهي تصيح:

- قتلوا أختشي يا باشا! قتلوا أختشي الحيلة!

وبكت، فساح كحلها ليزيد منظر وجهها النحيف قبحًا، ومكملة صياحها:

- يا عيني يا وداد يا أختشي! يا صغيرة ع الموت يا أختشيييي!

مطت زينب شفتيها ممتعضة من أداء شكرية الهمجي، ثم زفرت قائلة:

- حضرتك عايز مني حاجة تانية؟

- حاليًا لأ. بس خليكِ قريبة.

هزت رأسها، وخرجت لتتركني مع شكرية شقيقة القتيلة التي بدأت تمسح دموعها بكُمها وهي تقول:

- لما كلموني في المشتشفى ما صدقتش!

زاد بكاؤها:

- أنا اللي مربية وداد يا باشا. أبويا وأمي سابوهالي وهي تلاتاشر سنة، وأنا اللي اشتغلت وربيت، وحلفت لأخليها تتعلم وتاخد الدبلون وتبقى عروسة.

احتد بكاؤها وهي تقول:

- تيجي تموت كدهوك؟!

بدأت تولول قائلة:

- سيبتشيني لمين؟ ليّ مين من بعدك يا بنت أمي وأبويا! مين اللي عملها يا باشا؟ مين اللي قتل أختشي؟

أخمدت سيجارتي، وسألتها متجاهلًا ولولتها المصطنعة:

- تفتكري إنتِ مين؟

- يعني أنا اللي هاعرف شغلكم يا باشا؟!

- رُدي عِدل! كنتِ فين الساعة اتناشر؟

- في المدعوقة المشتشفى، كان عندي نبطشية.

- واتخانقتِ ليه مع أختك إمبارح الصبح؟

مسحت دموعها كاشفة عن وجهها الحقيقي وهي تنطق كلماتها بغل:

- عشان واطية بنت ستشين كلب! طلبت منها مبلغ ما يسواش ربع اللي صرفته عليها في تعليمها، تقوم الناقصة تقولي «وأنا مالي ياكش تتحرقي بجاز»! ده أنا لو كنت مربية كلب كان طمر فيه. هي أول ما دخلت البيلّا نسيت أصلها

ونكرت جمايلي عليها! أنا اللي خلِّتها بني آدمة، ووقفت حالي ومحتالي، وفي النهاية تعمل معايا كده؟!

عادت للبكاء:

- بس أقول إيه يا باشا! أختشي الوحيدة وماتت وقطعت بيَّ! على كل اللي كان بينا، ما كانش لينا غير بعضينا. كنا ناكل بعض زي الكلاب السعرانة وبرضك نرجع نتصالح. دي مش أختشي الصغيرة، دي ضنايا!

اشتد بكاؤها:

- ضنايا ماتت يا باشا!

خرجت الكلمات الأخيرة صادقة من قلبها، وأخذت تمسح أنفها المدبب كأنف الساحرة الشمطاء، ونطقت كمدًا:

- مين اللي عملها يا باشا؟ شاورلي بس عليه وأنا أنهش مصارينه!

- كنتِ تعرفي العلاقة اللي بين سعيد ووداد يا شكرية؟

- هو حضرتك عرفت؟!

- ده البيت كله عرف.

- عرفوا إمتى وإزاي؟! ده لحد النهارده الصبح محدش كان

عارف أيتوها حاجة!

- وإنتِ بقى اللي عارفة؟

- إلا عارفة، ده أنا اللي... أستغفر الله العظيم، ما كنتش عايزة أحكي، بس خلاص ما هي ماتت وما عادش يفرق. لما وداد رفضت تديني فلوس، أنا جبت سعيد وحطيته قدام عينيها كدهوك وقلتلها لو ما اديتينيش اللي عايزاه هاعرَّف البيه كل حاجة.

- هددتِ أختك بإنك تقولي لجوزها عن خيانتها له مع سعيد؟!

أرجعت رأسها للخلف قائلة بدهشة:

- أستغفر الله العظيم يا رب! تخون جوزها مع سعيد إزاي يا باشا؟! استغفر ربك!

- جرى إيه يا ست الشيخة؟! ما إنتِ اللي لسه قايلة كده!

- قايلة إيه يا باشا؟! دي وداد تخون البيه مع أي حد إلا سعيد!

أجبتها ساخرًا:

- إشمعنى؟! أخته في الرضاعة؟!

ـ لا يا باشا! أمه!

٤

فركت عينَي وقد بزغ الفجر ونفذ ضوءُه من الشباك، بينما كنت لا أزال أتحدث مع شكرية التي روت بلا توقف:

- سعيد يبقى ابن وداد ومدحت. الواطي عمل عَملته مع البت وهي خمستاشر سنة، وقالها هاسافر أطاليا وأرجع أعيشك برنسيسة. الفقري ابن الفقرية مات في البحر والسمك قرقشه. بس وداد كانت حِبلة وجات تعيطلي، وأنا أختها الكبيرة، وبرضك مسؤولة عنها يا باشا. قالتلي هتنزِّل العيِّل، قلتلها حرام يا أختشي ده روح، لو ما تلزمكيش غيرك أولى بيها. حاكم إحنا كان لنا جارة اسمها جمالات غلبانة غُلب الدنيا، متجوزة جدع شغال في الكويت، وقالها إن أمه هتخليه يطلقها عشان لسه ما جابتلوش عيِّل، أصل جمالات ما بتخلفش، وكانت خايفة تقول لجوزها ع الحكاية دهيك. أنا بقى جاتلي الفكرة، حيث إن أنا إيه... لما أمخمخ أعجبك أوي! قلتلها خدي ابن وداد يا جمالات وقولي لجوزك إنك حامل، وهو كده كده بينزل مرَّة في السنة، يعني مش هيشك في حاجة. جمالات قفشت في الفكرة وخدت وداد على الفيوم، هي أصلًا من هناك وعندها شجرتين برتقان. عيِّشت وداد معاها لحد ما ولدت، وخدت العيِّل، ومفيش مخلوق يعرف إن سعيد اللي مكتوب في الشهادة باسم جمالات

وجوزها يبقى من لحم ودم وداد ومدحت.

- أومال إيه اللي جابه هنا؟

- هو عيِّل خايب وعواطلي، وحاله اتأندل أكتر بعد ما جمالات وجوزها ماتوا، وعمه كَل عليه ورثه، فبقى ماشي بيتنشأ ع القرش. أنا شفت ظروفه، والصراحة يعني كنت مبؤأة من وداد، قلت أخلي المصلحة واحدة. كلمته وقلتله وداد تبقى أمك الحقيقية، وامشي معايا تطلع بهَبرة حلوة. وهو ما صدَّق. كلب فلوس زي أمه! جبته لوداد وقلتلها هتدفعي هنسكت على ماضيكِ.

- ابتزاز يعني!

- فين الاستبزاز ده يا باشا؟! ده أنا سترت عليها، ولميت لحمها، وخلِّتها تساعد الواد اليتيم وتشغله عندها، وياكل لقمة حلوة، ويلبس هدمة نضيفة، ويقعد في بيلَّا أهله ما يحلموش يشوفوها من بعيد و...

- وإنتِ تسحبي من وداد على راحتك، وهي مش هتقدر تِبِم معاكي!

- ما تقدرش إيه؟! وداد دي جبارة، ده أنا لما طلبت منها فلوس آخر مرة قالتلي «كفاية وأعلى ما في خيلك اركبيه، إنتِ معندكيش دليل إن سعيد يبقى ابني»، فقلتلها بس عندي

يا روح أمك دليل إنك مش حامل. أصل كلام في سرك، هي جالها المرض إياه بتاع نزيف الرحم قبل ما تيجي البيلّا هنا وكان لازم تشيل الرحم، بس طبعًا البيه مش عارف، هي مخبية عليه وعارفة تحبك الدور صح.

ـ وسعيد؟

ـ واد قلبه أبيض، هو عصبي حبتشين آه، بس يطلع وينزل على مفيش. ورث من وداد طلقها الحامي، وخد مني قلبي الطيب.

رفعت حاجبي، فأنا لا أفهم عن أي قلب طيب تتحدث!

***

كدت أطرح على شكرية سؤالًا جديدًا، لولا أن قاطعني قطز بدخوله المفاجئ ممسكًا بفتى في التاسعة عشرة من عمره، له أذنان وطواطيتان، ووجه كوجه الفأر، وبشرة لم تتعافَ من آثار حَب الشباب بعد.

شدَّد قطز قبضته عليه قائلًا:

ـ الباشا كان بيحاول يهرب.

قال الفتى معترضًا بنبرة همجية، بينما قطز يُلقي به على الكرسي المقابل لي:

- ما كنتش باهرب يا عم! إوعى كده طاااه.

- يا عم؟! طب اظبط ياض بدل ما أخرشمك!

قالت شكرية بريبة:

- بتحاول تهرب من إيه يا سعيد؟!

- ما كنتش باهرب باقولك!

صاح قطز:

- أومال أنا قفشت مين على سور الفيلّا زي البرص؟ ها؟

لِمَ لا يحاول الهرب وهو قصير القامة ونحيف وفي بنطلونه ثقب؟ إن مواصفاته تتطابق مع مواصفات القاتل، كما أن فريدة رأته ممسكًا بالسكين ويهدد وداد بالقتل.

- إنت بتدخن يا سعيد؟

أجاب مترددًا وكأنني أبوه:

- آه.

- مش تقيلة على صدرك السجاير الكليوباترا دي؟

ضحك متهكمًا، وقال متفاخرًا:

- يا باشا، أنا، لا مؤاخذة، صدري حديد.

نظرت إلى قطز، فهز رأسه موافقًا على أن علبة السجائر والولاعة اللتين وجدناهما في غرفة وداد تخصان سعيد.

ـ كنت بتعمل إيه في أوضة وداد الساعة اتناشر؟

حك رأسه قائلًا ببطء:

ـ والله، يا باشا، يعني.. كنت باكلمها في موضوع خصوصي كده.

ـ موضوع إيه ده اللي يخليك ترفع سكينة على أمك؟

اتسعت حدقتا عينَي قطز في اندهاش، بينما تعجب الفتى قائلًا:

ـ هي شكرية اعترفت من أول قلم؟!

شهقت شكرية قائلة:

ـ اعترفت على إيه يا واد؟! رفعت السكينة على وداد ليه؟ قتلت أمك يا سعيد؟!

اندفعت من مقعدها وانقضت عليه كالضبع ممسكة بعنقه وصائحةً:

ـ قتلت أختشي يا ناقص!

دفعها بقوة صائحًا:

- إوعي كده! إنتِ ما صدَّقتِ تلاقي جنازة تشبعي فيها لطم! سكينة إيه يا باشا؟! إنت جبت الكلام ده منين؟!

- الناس شافوك ماسك سكينة الفاكهة وبتهددها.

- يا باشا دي كانت لحظة غضب. إنت فاهم غلط. أنا طلعتها الأوضة وشديت معاها بكلمتين، بس هي فهمتني الدنيا وأنا خرجت و...

- خرجت من الشباك ليه؟

صمت مرتبكًا، فقلت له:

- قول اللي حصل بالتفصيل عشان كده القضية لابساك يا رِوش.

حك رأسه، ثم زفر مبررًا:

- يا بيه، أنا خدت كاسين من اللي في الحفلة، والخمرة ونِّت معايا. كنت طالب منها فلوس وهي قالت مش هتديني، فطلعتلها الأوضة وهددتها، بس اللي هو طلقتين في الهوا يا باشا، كلام في الكليتش يعني مش تهديد بجد، وهي نفسها كانت عارفة ده، وخدت مني السكينة وسابتها ع السرير، وسجدتني وقالتلي «أنا حطيتلك فلوس في الحساب اللي فتحتهولك عشان تسدد ديونك». أصل أنا دخلت مشروع

سايبر واتنصب عليّ، ومتداين لطوب الأرض وماضي على وصولات أمانة ومحتاج فلوس عشان ما اتحبسش، مش أكتر من كده يعني.

- وبعدين؟

- البقرة الضاحكة بنت البيه دي شافتني من خرم الباب، ونادت ع الحيزبونة اللي اسمها زينب، فوداد قالتلي أنط من شباك الحمّام قبل ما جوزها يشوفنا ويفهم غلط يعني لما يلاقي راجل في أوضة نومه، ما هو محدش يعرف إني ابنها غير شكرية، فنطيت من الشباك ورجعت أوضتي اللي في الجراج، وبعدها سمعت صويت.

قال قطز:

- المفروض بقى نصدق الهتش ده؟ هددتها واتصالحتوا ومشيت؟

- ورب الكعبة ده اللي حصل!

- أومال حاولت تهرب من الفيلّا ليه؟

- عشان ألحق أسحب الفلوس من البنك، أصل لو حد لقى إنها حولتهملي ممكن يشك فيّ.

قال قطز:

- إنت كداب فاشل يلَّا!

- يا باشا والله ده اللي حصل بالسحتوت!

- فيه حد يشهد على إنك طلعت من أوضة وداد وهي لسه عايشة؟

- يعني إيه؟

- يعني الكاسين لعبوا في دماغك، وكلمة منك على كلمة منها طعنتها عند باب الحمَّام، فهي جريت على البلكونة تستنجد، فطعنتها تاني من ضهرها ورميتها من البلكونة، وهربت إنت من شباك الحمَّام وخفيت السكينة و...

صاحت شكرية وهي تنقض عليه ثانية:

- قتلت أختشي يا وسخ!

انتفض قائلًا:

- ورب الكعبة ما حصل!

أكمل قطز:

- طولك نفس طول القاتل، دخلت الأوضة وقفلت من جوه، وجزمتك سابت آثار طين، ومسمار شباك الحمَّام نتش بنطلونك وإنت بتهرب. شايل في قلبك غل وكره إنها بتتنكرك

قدام الناس وكمان رافضة تديك فلوس وتعوضك، فخلصت عليها.

ـ تعوضني عن إيه يا بيه؟! تعوضني عن إنها جابتني من الحرام ورمتني لغيرها عشان تستر فضيحتها؟! يا بيه، ده أنا ربنا أنقذني منها ومن عيشتها النجسة!

ـ أومال قتلتها ليه؟

ـ وربنا وربنا وربنا ما قتلتها!

التفت إلى شكرية صائحًا:

ـ قوليله، قوليله إن إنتِ اللي جبتيني هنا ولعبتِ في دماغي بمفك عشان ناخد منها قرشين!

صاح في اتجاهنا:

ـ ما قتلتهاش! ده أنا باخاف من الدم! طب ورب العباد ما قتلتها!

صاح به قطز بنبرته الميري الخاصة بالتحقيقات:

ـ فين السكينة يلّا؟

ـ ورب الكعبة ما أعرف. أنا ما عملتش حاجة! إيه الافترا ده؟!

قال قطز وهو يخرج الكلابشات:

ـ هو إنت لسه شُفت افترا!

* * *

قيّدت الكلابشات يدَي سعيد الذي لم يتوقف عن البكاء والصياح والقَسم بأنه لم يرتكب الجريمة التي تناسب مقاسه تمامًا. فما من شاهد على رحيله من غرفة وداد وهي على قيد الحياة، كما أنه اعترف بنفسه أنه كان مخمورًا وغاضبًا ولا يدرك ما يفعله، وليس من الصعب أن يكون الغِل الذي يحمله في عقله الباطن قد دفعه إلى القتل.

يبدو الأمر في غاية البساطة، لكن حين يكون الأمر بتلك السهولة أتأكد من أن هناك خطأ ما.

وُضِع سعيد في سيارة الشرطة، ولم يتوقف عن الارتعاش والتشنج والصياح، حتى وصلنا إلى القسم كي تؤخذ أقواله ويجري التحفظ عليه إلى أن يُعرض على النيابة.

* * *

جلست على المكتب لاهيًا بليمونتي الصفراء قائلًا لقطز:

ـ أنا مش مقتنع.

ـ بإيه؟

- سعيد هيستفيد إيه من قتل وداد؟ لسبب ما أنا مصدق إنه نط من الشباك قبل ما تموت.

صمت قطز وقطب حاجبيه، ثم قال:

- الأدلة كلها ضده يا نوح.

- عشان كده إحنا متحفظين عليه. لكن فين الدافع؟

- عشان يشفي غليله.

- لو على الغليل يبقى الأولى إن شكرية هي اللي تقتلها بعد ما قضت عمرها تربيها وسترت عليها لما غلطت، وأول ما وداد اغتنت طرقعتلها.

- بس شكرية كان عندها نبطشية في المستشفى وقت الجريمة.

- ده غير إنها جبانة ومش من النوع اللي يقتل. هي تهدد، تبتز، تسرق، لكن ما تقتلش.

- يبقى خلاص مفيش غير سعيد.

- مين المستفيد من موت وداد يا قطز؟ أو بمعنى تاني مين المتضرر من وجودها؟

- نادين مرات يوسف، بس...

ـ بس هي مش عارفة إن وداد حامل، وفاهمة إن يوسف هيطلّقها وهيرجعلها.

ـ وكمان كانت في أسوان وقت الحادثة. يبقى يوسف نفسه؟ بس هو طويل، وكان هيتشاف في البلكونة.

ـ ممكن ما يبقاش هو اللي رماها، لكن هو اللي طعنها في الأوضة وحد غيره كمّل.

صمت قطز للحظات، ثم قال:

ـ قصدك إن اللي قتلوا وداد اتنين مش واحد؟

ـ مفيش غير اتنين اختفوا وقت الحادثة، ومفيش شاهد على إنهم كانوا فين وبيعملوا إيه بالظبط غيرهم هما الاتنين، فممكن يبقوا طابخينها سوا.

حاولت تخيل سيناريو معقول للجريمة، فبدأت أنطق بما ترسمه لي مخيلتي:

ـ يوسف وزينب دخلوا الأوضة، ويوسف قفل الباب بالترباس، ولمح سعيد قبل ما يهرب، فدمه فار وسحب سكينة الفاكهة في لحظة غضب، وطعنها الطعنة الأولى، فتنّح والسكينة وقعت منه من الصدمة، لكن وداد جريت على البلكونة وصرخت. زينب خافت إن حد يسمعها ويوسف

يتسجن، فخدت السكينة وطعنتها الطعنة التانية وزقتها عشان تخلص منها وتحمي يوسف، وزينب أقصر من وداد.

حك قطز ذقنه مفكرًا، ثم نطق أخيرًا:

ـ احتمال معقول، والدافع موجود عند الاتنين، بس فريدة قالت إنها شافت باباها بيكسر باب أوضة وداد لأن أوضتها قدام أوضتهم بالظبط، فلو هو اللي قتل وداد كان عادي دخل وخرج من غير ما حد يشوفه، إيه الهدف من إنه يترس الباب من جوه وبعدها ينط من الشباك؟ وهنقول يا سيدي إنه غيَّر البنطلون عشان ما يبانش قطع المسمار، بس ليه يرجع الأوضة تاني ويكسر الباب؟ لو كان فعلًا مصدوم ما كانش هيلحق يفكر ويخطط لكل ده. وبعدين زينب هتنط من الشباك إزاي بسنها ده؟ لفة طويلة أوي يا نوح.

أمسكت رأسي محاولًا مقاومة الصداع الذي يفتك بي قائلًا:

ـ أنا بافكر معاك بصوت عالي، بس أنا عندي إحساس كبير إن مش سعيد اللي عملها.

ـ أنا مش قادر أشك في حد غيره، وفي جميع الأحوال هيتعرض على النيابة وهما يحددوا. ولا أقولك؟ لما الساعة تيجي اتناشر، روح وداد هتظهر، ابقى روح اسألها.

زفرت وقد اشتد ألم رأسي:

ـ ما قداميش حل غير ده. معاك حاجة مسكّرة؟

ـ استنى نبعت عم حمدي يجيبلنا تودو براونيز و...

ـ تودو براونيز إيه؟! أنا قاعد مع بنت أختي!

مددت يدي في جيبي متذكرًا وجود حبتين من السكاكر التي اشتريتها لتالا وخبّأتها كالعفريتة في دميتها الكبيرة و...

دميتها الكبيرة؟!

انتفضت من فوق الكرسي ساحبًا مفاتيحي وقائلًا:

ـ قوم يا قطز بسرعة.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم! فيه إيه؟!

ـ أنا إزاي ما أخدتش بالي من اللقطة دي؟! فريدة هي اللي قتلت وداد!

٥

إذا رأيت فريدة فستظنها مسكينة لا تقوى على إيذاء بعوضة، لكن ليس كل ما تراه حقيقيًّا!

كنت أستنكر أن فتاة في الثانية عشرة من عمرها في عصر الواي فاي تتنقل حاملة دمية كبيرة محشوة بالقطن في يدها، لكنها الآن ذكرتني بتالا التي كانت تحمل دبها القطني معها لأنها تخفي فيه سرها ـ الحلوى المخبأة ـ ولا تود أن تتركه يفارق حضنها حتى لا تتفحصه أمها وتكتشف أمرها.

هكذا فعلت فريدة!

لِمَ أكدنا على أن القاتل هرب من النافذة؟!

أليس واردًا أن يكون قد اختبأ أسفل السرير أو في الخزانة منتظرًا أن يُفتح الباب ثم يخرج مَن في الغرفة ـ يوسف وزينب ـ مهرولين نحو مدخل الفيلّا لتفقد جثة القتيلة وسط الحضور، ثم يتسلل القاتل من الخزانة أو من أسفل السرير وصولًا إلى مكان آخر قريب؟

وأي مكان أقرب للغرفة التي حدثت فيها الجريمة سوى غرفة فريدة!

هكذا أتصور الأمر:

وصل بوكيه ورد مصحوبًا بكارت من نادين طليقة يوسف.

وداد رأت الكارت وشعرت بالغيرة، فتشاجرت مع زوجها.

سعيد لمح وداد تترك الحفل متجهة إلى غرفتها.

ألطاف قدمت الكريم كراميل إلى فريدة المنشغلة بمتابعة فيلم رعب دموي.

وداد رأت ألطاف فصاحت بها، وطلبت منها كوب الحليب وطبق الفاكهة، وفي خلال دقائق نفذت ألطاف الأمر.

انشغلت وداد في تقشير التفاحة الحمراء، في اللحظة التي رأت فيها سعيد المخمور يدخل غرفتها بحذائه المتسخ بالطين صائحًا، فخافت أن يراه أحد، فأغلقت الباب من الداخل بكامل رغبتها.

أمسك سعيد كوب الحليب وألقى به فاصطدم بالحائط وانكسر، وترنح ثم سحب السكين من فوق طبق الفاكهة الذي انقلب وتناثرت محتوياته، وهددها بالقتل في لحظة تهور.

سمعت فريدة الضجيج من غرفتها التي تبعد عن غرفة وداد بضع خطوات.

خرجت فريدة ونظرت من ثقب الباب لتراقب ما يحدث، بينما أخذت وداد السكين من سعيد ووضعته على السرير.

أتت زينب من خلف فريدة وتحدثتا، فسمعتهما وداد، فجعلت سعيد يهرب من نافذة الحمّام.

نزلت زينب على السلالم وأمرت فريدة بأن تعود إلى غرفتها، لكن فريدة من فرط فضولها لم تدخل غرفتها.

بعد أن هرب سعيد من النافذة، أخذت وداد نفسًا عميقًا وفتحت الباب متظاهرة بأن شيئًا لم يحدث.

وداد رأت فريدة واقفة أمامها فصاحت بها، لعلها استفزتها أو شتمتها أو حتى ضربتها.

ربما سمعت وداد صوتًا قادمًا من الحمّام، أو أنها اتجهت بالفطرة نحو الحمّام لتتأكد من أن سعيد قد رحل.

ومحملةً بالكراهية، مشحونةً بكَمٍّ كبير من المشاهد الدموية العنيفة في الفيلم الذي كانت تشاهده، لمحت فريدة السكين على السرير، وقد ألهمها مشهد تهديد سعيد لوداد بالقتل.

دخلت فريدة الغرفة، وأغلقت بابها من الداخل، ثم سحبت السكين، واقتربت من وداد الواقفة عند باب الحمّام، وفي اللحظة التي استدارت فيها وداد طعنتها فريدة بعنف في بطنها.

اندفعت وداد ضئيلة الحجم نحو الشرفة صارخة تطلب العون، فطعنتها فريدة القصيرة ثانيةً في ظهرها، وعندما أدركت أن وداد لا تزال حية، انحنت المراهقة ذات الجسد القوي ورفعت قدمَي الضحية ضعيفة البنية عن الأرض وأسقطتها من الشرفة.

استدارت فريدة لترحل بدم بارد، لكنها سمعت صوت أبيها وزينب وهما يقتربان، فاختبأت سريعًا تحت السرير أو في داخل الخزانة، وظلت هناك حتى كسر أبوها الباب ودخل وتفقد الغرفة ثم رحل الاثنان.

خرجت فريدة من مخبئها، وهرعت إلى غرفتها، فغسلت سكينها ويديها من أثر الدماء، وغيَّرت ملابسها، ثم التفتت حولها ولم تجد سوى دميتها المنتفخة الراقدة على السرير.

فتحت سَحَّاب الدمية كما تفعل تالا، وأخرجت القطن ودفست السكين، ثم أعادت الحشو وأغلقت السَّحَّاب، وظلت متعلقة بدميتها حتى لا ينكشف أمرها.

***

انزعج قطز من الفكرة وقال ونحن في طريقنا إلى الفيلَّا:

ـ لا لا لا! مستحيل!

ـ ليه؟

ـ ليه؟! إنت بتحاول تقنعني إن بنوتة كيوت تـ...

ـ أولًا كلمة كيوت دي بتعصبني. ثانيًا الجريمة جات بشكل عفوي بدون سابق تخطيط، وده يزود احتمالية إن هي اللي عملتها. العنف اللي بيتشاف في التلفزيون كل يوم، سواء أفلام أو مسلسلات أو حتى الأخبار اللي بتعرض الجثث كأنها جُبن عليه عرض في كارفور، بيأثر على نفسية العيال. مش كده وبس، هي حاسة بالخيانة من ناحية وداد اللي وثقت فيها وحبتها وبعدها لقتها بتفرق بين أبوها وأمها، وكمان بتسيء معاملتها وبتتريق عليها وبتلطَّشها في الرايحة والجاية ومحدش بيمنعها، ويوم ما البنت اتعشمت إن أبوها وأمها هيرجعوا لبعض، وداد طلعت حامل وفرقت بين أهل فريدة للمرَّة التانية.

ـ بس يا نوح...

ـ الضغط بيولِّد الانفجار، والناس بيتعاملوا مع عيالهم على إنهم أطفال مش فاهمين حاجة ولا عارفين اللي بيحصل حواليهم، وإنهم لما يكبروا هينسوا، بس عمرهم ما بينسوا! كل إهانة، وكل ضربة، وكل قسوة، بيشوفوها، بتتخزن جواهم، فطبيعي تبقى دي نهاية وداد!

- طب على الأقل لو كانت هي اللي عملتها كانت تنهار، مش تبقى متماسكة ولا أجدعها سفاح!

- ممكن تبقى في حالة صدمة أو إنكار أو شايفة إن اللي عملته حلال في وداد، فما اتأثرتش، بدليل إصرارها على إن وداد تموت، طعنتها مرة واتنين ورميتها من البلكونة، ده كان ناقص تفجر بيها الفيلَّا!

بدأ قطز يقتنع، لكنه رفض الاعتراف بذلك وقال:

- عمومًا، نظريتك دي هتبقى صح لو لقينا السكينة في الدبدوب زي ما بتقول.

- تراهن على كام؟

* * *

كانت الساعة السابعة صباحًا عندما دخلنا فيلَّا يوسف، وكان يوسف مضطربًا عندما قابلنا قائلًا:

- خير؟

عجز قطز عن الرد، فقلت:

- إنت عارف إننا ما لقيناش سلاح الجريمة اللي هو سكينة الفاكهة، وسعيد ما اعترفش على مكانها، فشكينا إن حد خباها عند بنتك.

اضطرب قائلًا:

- عند فريدة؟! بس إنتو فتشتوا الفيلّا حتة حتة، وقلبتوا أوضتها وما لقتوش حاجة!

- بس فيه مكان محدش فكر فيه. دمية الدبدوب الكبيرة اللي بنتك ماسكاها. هي متعودة تشيلها كده؟

- لأ. أنا حتى استغربت، بس قلت يمكن عشان خايفة من اللي حصل.

- ممكن أشوفها؟

- أكيد. بس هو مين ممكن يخبي السكينة في الدمية؟

كاد قطز أن يشرح له، لكني أوقفته قائلًا:

- كل حاجة هتبان لما نفحص الدمية.

- مفيش مشاكل. لحظة أجيبهالكم و...

- لأ. إحنا هنطلع معاك نشوفها بنفسنا.

اضطرب، لكنه بلع ريقه قائلًا:

- اللي تشوفوه.

* * *

وقفنا عند باب غرفة فريدة ذات اللون البرتقالي، التي تنتشر على حوائطها ملصقات أفلام الرعب بوحوشها البشعة ووجوهها الدامية ومشاهدها المرعبة، وكانت الفتاة البدينة نائمة في سريرها الكبير، تحتضن دميتها بشكل عنيف، وفور أن دخل والدها فتحت عينيها وقالت منتفضة:

- بابي؟!

- حبيبتي، خليكِ نايمة، أنا هاخد الـ«teddy bear» بتاعتك وهاطلع.

نهضت مفزوعة، وأحكمت قبضتها على الدمية قائلة:

- ليه يا بابي؟!

- الظابط عايز يشوفها.

- لأ، دي بتاعتي أنا، محدش هيشوفها!

تعجب الأب من اعتراض ابنته، بينما كانت مقاومتها - من وجهة نظري - تأكيدًا على نظريتي.

- حبيبتي، هنشوفها ونرجعها تاني بسرعة.

صاحت في أبيها صارخة:

- باقولك لأ، محدش هيشوف حاجتي!

جذب الأب الدمية ضجِرًا، لكنها شدتها منه، وظلّا يتجاذبان أطراف الدمية المحشوة حتى انخلعت ساقها، فصاح يوسف بابنته:

ـ إيه الدلع ده يا فريدة؟!

من الساق المخلوعة التي تدلى منها القطن، سقط السكين الوردي محدثًا رنة على السيراميك الأبيض، ولمع طرفه الحاد عاكسًا ضوء الصباح المتسلل من نافذة الغرفة.

شهقت فريدة واضعة يدها على فمها، بينما تعجب الأب وكاد ينحني لالتقاط السكين، لكني أسرعت قائلًا:

ـ ما تلمسهوش، ده سلاح الجريمة!

شعر قطز بخيبة الأمل في اللحظة التي شعرت فيها بمشاعر لا أفهمها.

نصر ماسخ، وظفر مُر.

انفجرت فريدة باكية قبل أن ينطق أيٌّ منا، وقالت:

ـ هي السبب، هي اللي عملت نفسها بتحبني وضحكت عليّ عشان تتجوزك، وبعدها بقت بتضربني وتشتمني وتتريق عليّ!

تجمدت أطراف يوسف، وتيبست ملامحه وهو يتمتم

بصوت مهزوز:

- هي مين يا فريدة؟

أكملت بكاءها ووجهها يكاد ينفجر من شدة حمرته:

- وداد! وداد الشيطانة! هي اللي خلتني أقتلها!

أسقط يوسف الدمية من يده، وفتح فمه، وشعرت أنه عاجز عن التنفس، بينما أكملت فريدة:

- هي اللي خلتك إنت ومامي تسيبوا بعض، وخلت عمو حامد يمشي، وهي اللي ضربت زوزو، وسممت الهاميستر بتاعي عشان بتخاف منه. هي اللي شالت صور مامي من كل حتة، وبقت بتطلع معاك في التلفزيون بدلها، وتقعد على السُّفرة مكانها، وتنام في سريرها، وتاكل في أطباقها. إنت ومامي كنتوا هترجعوا لبعض، بس هي حامل، عشان كده هتفضل طول عمرك معاها، وهي هتفضل طول عمرها تعذبني! ما كنتش عايزة أخ منها! أنا كنت عايزة أعيش معاك تاني إنت ومامي، كنت عايزاكم ترجعوا لبعض! وداد تستاهل اللي جرالها! وداد تستاهل إني أقتلها يا بابي!

* * *

الجريمة لا سن لها.

أصبحنا في عصر يسهُل فيه سلب الناس أرواحهم!

ليس من الضروري أن تطعن أحدهم أو تلقيه من النافذة كي تصبح قاتلًا، فالقتل المعنوي سم بطيء المفعول ودائم الأثر.

كلمة واحدة قادرة على قتل أحدهم، هكذا يُصنع المجرمون، أيًّا كانت طبقتهم الاجتماعية أو المادية، فالنفس البشرية واحدة.

كلنا كائنات تظن نفسها الأقوى، على الرغم من أننا الأضعف، فلنا قلوب سهلة الجرح، ونفسيات هشة قابلة للكسر، وعقول من السهل التلاعب بها، وذاكرة تُخلِّد كل ألم وجرح.

لم يعد من الإنساني أن نؤذي صغارنا ونؤلمهم سبًّا وضربًا وسخرية وإهانة، ظانين أنهم سيكبرون وسينسون، لأنهم في الواقع لا ينسون ولا يغفلون أبدًا عمن آذوهم.

* * *

أخرج قطز من جيبه العلبة البلاستيكية الصغيرة التي يضع فيها بذور القرنفل ذات الرائحة النفاذة، وأخذ بذرة داكنة اللون وبدأ في مضغها لسبب أجهله، ولم أكن في مزاج حسن لأسأله عن هذا.

لم يتوقف عن المضغ، وبينما يتصفح الإنترنت قال بنبرة مصدومة:

ـ يا نهار إسود! الأرقام في مصر بتقول إن فيه أكتر من ١٠ آلاف طفل محكوم عليهم أو محبوسين احتياطي، ونسبة الجريمة المتورط فيها الأطفال زادت ٢٥٪ من بعد ثورة ٢٠١١، ده غير نسبة المحكوم عليهم بسبب جرايم عنيفة تؤدي للحبس أكتر من ١٠ سنين، ده غير إن ٢٣٪ من إجمالي الأطفال المسجونين ٢٠٪ منهم ارتكبوا جرائم قتل عمد، و٥٠٪ منهم سرقة ومخدرات!

لم أعلِّق، وبقيت أحملق في السقف في حالة من الشعور بالذنب.

للمرَّة الأولى أشعر بالندم بعد كشفي لهوية القاتل الحقيقي.

حاولت أن أذكِّر نفسي بأنني أنقذت سعيد المسكين البالغ من العمر تسعة عشر عامًا من حبل المشنقة، وأنه أيضًا يعتبر طفلًا بالنسبة لي، لكني لن أنسى هذه القضية ما حييت، ولن يُمحى مشهد القبض على فريدة وهي تبكي من ذاكرتي، ولن أنسى تعبيرات وجه أبيها منكس الرأس.

ذلك الرجل اكتشف في ليلة واحدة أن زوجته كاذبة وليست حاملًا، فخسر ابنًا كان يظنها تحمله في أحشائها،

وخسر ابنة أصبحت قاتلة بسبب نزوة حمقاء وزواج متهور أقحم نفسه فيه، ولا أعلم كيف سيُكمل حياته وفوق كاهله كل هذا الذنب الذي اقترفه في حق ابنته الصغيرة.

اقترب قطز من الشاشة، وأكمل كلامه بنبرة أكثر غضبًا:

- الْحق يا عم، السنة اللي فاتت بس اتسجلت ١٥ ألف جريمة ارتكبها عيال تحت سن الـ١٨، منها ٤٧٣٠ قضية سرقة، و٤ قتل، و٢٢ قضية سلاح ناري، و٧٥ قضية سلاح أبيض، و٣٣٣ قضية مخدرات، و٤٠ قضية هتك عرض، و٨ قضايا دعارة.

هز رأسه ثم كرَّر مصدومًا:

- دعارة؟!

- ودوافع القتل معظمها خايبة واندفاعية. مش فاكر قضية العيِّل اللي قتل صاحبه في سوهاج عشان اتخانقوا على زينة رمضان؟! ولَّا الطفلين اللي اتخانقوا في القناطر على سعر سماعات توكتوك وواحد فيهم قتل التاني؟! أهو على الأقل فريدة كان عندها دافع منطقي.

زفر قطز، وأغلق اللابتوب بعنف، ثم قال بجدية:

- ابقى فكرني لما أخلف، لا أخلي عيالي يتفرجوا على أفلام رعب، ولا أجيبلهم دباديب كبيرة!

ضحكت مضيفًا:

ـ الأهم إنك ما تخونش أمهم مع دادة عشان حتة طبق كريم كراميل!

القضية الثالثة

ست الحسن

١

لو رأى قائدو السيارات العالقون في زحام كوبري قصر النيل ما أراه الآن بعينَي، لولوا فرارًا وقفزوا في النهر هلعًا.

على الكوبري العتيق، بين أبواق السيارات وصياح سائقيها الغاضبين، انتشرت أرواح لأطفال تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسابعة عشرة، يركضون بطريقة بهلوانية على السور الحديدي للكوبري، ويرقصون بشكل همجي فوق تماثيل الأسود الشامخة، ثم يقفزون في النيل أو يثبون على أسقف السيارات ويطيرون فوق رؤوس المارة وبائعي الفُل والمناديل.

خمس عشرة ضحية من أطفال الشوارع، ماتوا نتيجة حالة تسمم غريبة أصابتهم في منطقة قصر النيل، وقد اتجه الصغار إلى المستشفى ولكن رفضوا استقبالهم لعدم توفر المال أو لعدم وجود مكان لهم، منهم من مات على سلم المستشفى، ومنهم من فاضت روحه على الكوبري، لكن ها هم الآن خمسة عشر طيفًا في حالة من الهرج والمرج، كأنهم

في ملاهي السندباد، وكل هؤلاء البشر الذين يتذمرون من الاختناق المروري في ساعة الذروة يغفلون عمن يطوفون ويعبثون حولهم.

في وسط الأرواح التي غزت الكوبري، لفتت انتباهي روح رجل في الستينيات من عمره، يقف متكئًا على السور بعيدًا عن الأطفال العابثين وهو يراقب الزحام في صمت، يرتدي كنزة من صوف غالٍ، ويلبس نظارة ذهبية، وله شعر فضي ناعم، وملامح دقيقة، توحي لك هيئته بأنه فيلسوف أو فنان، يتأمل النيل تارة، ويبتسم لأرواح الأطفال اللاهين من حوله تارة أخرى، وقد بدا وجهه مألوفًا لي، ولكني لا أتذكر أين رأيته من قبل.

ارتابت روح الرجل الأنيق من تحديقي المطول إليها، فأبعدت نظري سريعًا قبل أن تدرك أنني أراها، ثم أكملت قيادتي متجهًا إلى القسم، متسائلًا إن كان ذلك الرجل الأنيق قد مات مسمومًا كباقي الأطفال.

***

في طريقي للجلوس على مقعدي، أخبرني قطز برغبة اللواء رشوان في رؤيتنا، فتوجهنا إلى مكتبه بعد أن لمَّع قطز حذاءه وهذب شعره ورش من عطره وكأنه على وشك مقابلة خطيبته.

طرقنا الباب ثم دخلنا إلى المكتب الواسع ذي الأرضية اللامعة والخشب الأنيق، ورحب بنا سيادة اللواء صاحب الوجه المستدير والعينين الضيقتين والأنف المعقوف، ثم قال بصوته الخشن:

ـ أكيد سمعتوا عن حادثة أطفال الشوارع اللي اتسمموا من كام يوم.

أجبته:

ـ أكيد سيادتك.

ـ خدتوا بالكم من تلميحات العيال بتوع النت، واتهامهم للداخلية بإنها هي اللي سممتهم عشان تخلص منهم زي ما حكومة البرازيل ضربت أطفال الشوارع بالنار؟

قال قطز:

ـ يا فندم، لما القضية تتحل ونكشف الفاعل الحقيقي هيتخرسوا خالص.

ـ عدى أسبوعين وما تمش التوصل لأي شيء!

أخذ نفسًا عميقًا وأكمل:

ـ أنا منبهر بالشغل اللي إنتو الاتنين عملتوه في الفترة اللي

فاتت، خصوصًا في قضية طه عبد اللطيف، عشان كده قررت إنكم تسيبوا أي قضية في إيديكم دلوقتِ وتنضموا لزمايلكم اللي شغالين في الموضوع ده. فكرت أديها لحد قديم، بس كلهم بيفكروا في نطاق محدود، وبيحطوا افتراضات تقليدية، والموضوع دلوقتِ اتحول لقضية رأي عام والوزير نفسه متابع، لأن أصابع الاتهام بدأت تتوجه لينا. أنا واثق إن التسمم الجماعي ده مش صدفة، زي ما أنا واثق بالظبط إن إنتو الاتنين هتقدروا توصلوا لإجابة منطقية للي حصل ده.

علقت قائلًا بثقة مفرطة:

- وإحنا قد ثقتك يا سيادة اللوا.

أضاف قطز:

- إن شاء الله هنلاقي اللي عملها.

ابتسم اللواء رشوان، وأضاف بحميمية:

- طريقة شغلكم سوا بتفكرني بأهلكم، يحيى وأنور، كانوا لما يحطوا قضية في دماغهم بيجيبوا قرارها.

قال قطز ممازحًا:

- طب والنبي يا سيادة اللوا تبقى تقول الكلمتين دول قدام بابا، عشان يبطل يقولي يا خايب في الرايحة والجاية!

ضحك اللواء فاهتزت كرشه الكبيرة، ثم علق:

- ما هو ده الفرق اللي بيني وبين سيادة اللوا أنور، هو مش شايف أمل في جيلكم، في حين إن أنا مؤمن بإنكم قادرين على صنع المعجزات.

* * *

جلس كلانا إلى المكتب الذي تعلوه الأوراق ونتائج المعامل، بعد أن أطلعنا زملاؤنا على ما توصلوا إليه في القضية، لنكتشف أنهم في الواقع لم يتوصلوا إلى أي شيء.

سألت قطز وأنا أدرس ملف القضية:

- تطلع إيه مادة الأتروبين دي؟

- المادة اللي اتسمموا بيها.

ونظر إلى التقرير:

- جرعة زائدة من مادة الأتروبين.

- مخدرات دي يعني ولّا إيه؟

أخذ ورقة وبدأ في قراءتها:

- مكتوب هنا، مادة تُستخدم كقطرة لتوسيع حدقة العين أثناء العمليات الجراحية والتهاب العنبية، وتعالج بطء القلب

والقولون العصبي والقرحة، وتُستخدم كترياق ضد التسمم بفطر عيش الغراب والمبيدات الفسفورية العضوية و...

- انجز يا قطز! ده سم ولّا دوا؟

- اللي فهمته إنه مادة بتستخدم في صناعة الأدوية، بس زي أي حاجة في الدنيا، لو زادت عن جرعتها بتتحول لسم.

- يبقى نشوف مين اشترى أي دوا فيه المادة.

- الشباب عملوا كده، لقوا إن كل اللي اشتروه في الفترة اللي فاتت كانوا من مرضى القلب، وجابوه بروشتة وبالجرعة المحددة. الطب الشرعي قال إن المادة اللي مات بيها الأطفال هي المادة الخام للسم مش المستخدمة في الأدوية.

- وإيه مصدر المادة الخام للسم ده؟

- مش عارف.

- نبقى نعدي على طارق نسأله، يعشق هو السموم زي عينيه!

هز رأسه موافقًا وهو يكمل قراءة التقرير، ثم أضاف:

- بيقولك إن السم دخل الجسم عن طريق الأمعاء، يعني اتحط في أكل أو شرب.

- حلو، إيه بقى الشيء اللي أكل منه خمستاشر عيِّل في نفس التوقيت؟

زفر قطز قائلًا:

- حسبي الله ونعم الوكيل في اللي موِّت العيال دي على سلالم المستشفيات كده! تعرف إني فرحان إن الموضوع سخنان والعيون على القضية! حق العيال دول لازم ييجي!

- هييجي، بس إيه الدافع ورا تسميم خمستاشر عيِّل؟

- تلاقيه توربيني جديد.

- التوربيني كان بيغتصب أطفال الشوارع وبعدها يقتلهم، لكن المرَّة دي محدش من العيال دول اتعرض للاغتصاب أو السرقة أو الضرب، اتقتلوا وبس.

- يمكن شغل عصابات في بعض، معظم أولاد الشوارع متورطين في تهريب مخدرات أو اتجار.

- ما أظنش إن عصابة مخدرات هتقتل بالسم، معظمهم بيستخدموا طرق عنيفة وهمجية. السم طريقة منتقم ذكي بس جبان وبيخاف يواجه، ده مش شغل عصابات نهائي.

* * *

كعادته، دخل صلاح بملابسه ذات الألوان الفاقعة المؤذية

للنظر بلا استئذان.

في الغالب، لا يمر على مكتبنا إلا لثلاثة أسباب: كي يتباهى بأمر ما، أو لكي يطلب منا طلبًا سخيفًا، أو لأن رائحة الطعام الذي نتناوله جذبت حاسة شمه التي تفوق حاسة شم الكلاب. وبالنظر إلى هذه العلبة الحمراء الملفوفة بطريقة رخيصة التي يحملها في يده، أظنه أتى ليتفاخر بأمر ما.

ـ إيه يا نكدي منك له؟ بتعملوا إيه؟

لم ألتفت إليه، وانشغلت بقراءة الملف، بينما نظر قطز إلى العلبة بفضول وقال:

ـ دي هدية الفالنتاين؟!

تظاهر صلاح التافه بأنه فوجئ بالعلبة في يده، ثم قال بتباهٍ لا داعي له:

ـ إيه ده؟ إنت خدت بالك؟

داعب شعره الذي تفوح منه رائحة الجيل المقيتة:

ـ دي البت سماح، جايبالي برفان عشان عيد الحب. إنت عارف تفاهة النسوان.

ـ تفاهة؟! كتَّر خيرها إنها عبرتك.

ـ دي أقل حاجة يا ابني، دا أنا مغرقها كروت شحن. بس والله أحسن من البت سوسن اللي جايبالي دبدوب محمياه في جردل ترتر أحمر.

ضحك كاشفًا عن أسنانه الصفراء:

ـ النسوان لسعت يا جدع. أنا يتجابلي دبدوب أحمر؟! فاكراني خريج تجارة إنجليش؟!

ضحك ضحكته الأقرب إلى نباح الكلب، ثم أكمل:

ـ لما نشوف نجوى هتجيبلي إيه هي التالتة، على الله تكون حاجة ليها لازمة.

التفت إليّ قائلًا:

ـ سيادة النقيب لمونة ساكت ليه؟

أجبته بفتور ومن دون أن أرفع عينَي عن الأوراق:

ـ مشغول.

ـ مشغول في إيه يا ابني إنت؟

ـ هو أنا مش قلتلك تبطل كلمة «يا ابني» دي؟!

ـ هو أنا باسبِّلك؟!

التفت إلى قطز قائلًا بسخرية:

- ما تقول لصاحبك ينزل من فوق البرج اللي بيكلمنا منه ويتعامل معانا عِدل، إحنا مش شغالين عند الست الوالدة.

قلت بهدوء:

- باقولك يا صلاح، خد هديتك ونسوانك وشنبك وجيل لولوا اللي في شعرك ده واتكل على الله!

- آآآآآآه، أنا برضو قلت كده، محروق إنت عشان جالي تلات هدايا وإنت سنجل منتن محدش معبَّرك!

وضحك ساخرًا:

- يا رجالة، صفوا نيتكم عشان ربنا يكرمكم.

قلت ببرود:

- يكرمنا بإننا نبقى زيك؟! عندك أربعة وتلاتين سنة، ومطلق تلات مرات، ومتجوز اتنين عرفي، ومخلف أربع عيال كل واحد فيهم من واحدة شكل!

ضحك الضحكة نفسها، وقال:

- طب يمين تلاتة بتغِيروا مني. معلش، بكرة يجيلكم عَدلكم.

ضحك ثانية:

ـ صحيح، وصلتوا لإيه في القضية بتاعة العيال اللي اتسممت؟ أنا كنت هاشتغل فيها بس اللوا رشوان شاف إنها قضية تافهة وصغيرة عليَّ أوي.

أدرت عينَي في محجريهما، وزفرت ضجرًا، فهذا هو صلاح، يُتفِّه ويُحقِّر من شأن أي شيء يخفق فيه، ويقلل من قدر مَن ينجح فيه حتى يهوِّن فشله على نفسه.

لم أعره اهتمامًا، بينما أكمل منفعلًا:

ـ شوية عيال كلوا من الزبالة ولا اشتروا أكل حمضان وماتوا، إيه بقى الهُليلة الكبيرة اللي اتعملت دي؟! والجرايد العالمية تتكلم عن حقوق الإنسان وإهمال المستشفيات و...

قاطعه قطز متضايقًا:

ـ ما هو لو كان عيِّل من عيالك اللي اتسمم ما كنتش قلت كده!

احتدت نبرة صلاح:

ـ إنت هتجيب عيالي لجرابيع الشارع؟! أنا موفرلهم أحسن عيشة، وهاطلعهم بني آدمين مش بلطجية وكُوليجية يرازوا في الخَلق!

التفت إليَّ مضيفًا:

- إيه يا سي نوح؟ نسيت جارك اللي عيِّل من دول ثبِّته وغزه؟ ولَّا البنات اللي بيغتصبوهم؟ إيه يا جدعان! العيال دي موتها راحة، بلاش خوتة دماغ!

- أولًا ما تجيبش سيرة جاري الله يرحمه تاني نهائيًّا. ثانيًا إنت معندكش ذرة إنسانية، اللي بتتكلم عليهم دول أطفال عندهم سبع وتمن سنين، وكل القرف اللي هما عايشين فيه ده بسببنا، مش عارفين نوفرلهم حياة كريمة ولا مأوى يلمهم! يعني إيه عيِّل يتسمم وما يلاقيش دكتور ينقذه؟! يعني إيه يسيبوه يموت على السلم زي الكلب عشان ملوش أهل؟!

- والله محدش خلاه يهرب من بيتهم ويعيش في الشارع، ولا أجبر أمه على إنها تجيبه من الحرام وتبلينا بيه. بناقص الأشكال الوسخة دي!

أغلقت الملف الذي أقرأه وقد طفح بي الكيل، وأجبت صلاح بنبرة صارمة:

- أمثالك يا صلاح، اللي مديين نفسهم الحق في تحديد مين يستاهل يعيش ومين يستاهل يموت، هما اللي جايبنا ورا! روح شوف البت نجوى جايبالك إيه، وسيبنا نشوف شغلنا!

- وهو شغلكم حماية ولاد الشوارع والبلطجية و...

ـ شغلنا حماية الأرواح والأعراض والأموال، ومنع الجرائم وضبطها، وكفالة الطمأنينة والأمن للمواطنين في كافة المجالات. مش دي المادة التالتة من القانون ١٠٩ اللي إنت فالقنا بيه ومش حافظ منه غير اللي على مزاجك واللي لصالحك وبس؟!

ضحك متهكمًا وقال:

ـ قلب خساية يا أخويا منك له!

وخرج متمتمًا:

ـ جاتكم خيبة!

رحل عن مكتبنا بعدما سحب كل الأكسجين من الغرفة، فقال قطز:

ـ أنا مش مصدقه بجد!

ـ عادي يعني، صلاح طول عمره حيوان وأفكاره...

ـ مش قصدي على أفكاره. أنا مش مصدق إن صلاح المعفن تيجيله تلات هدايا في الفالنتاين وأنا قاعد زي قرد قطع كده! ده ظلم!

زفرت قائلًا:

ـ طب قوم، قوم نروح لطارق يا خيبتها!

***

في طريقنا إلى صيدلية طارق في جاردن سيتي، رأيت السيدة فتون، ذات القامة الطويلة، والجسد النحيف، والبشرة السمراء، والشعر الأسود «جارسون»، والملامح المتطابقة مع نفرتيتي. كانت تقف في محل الورد الذي افتتحه أبوها في خمسينيات القرن الماضي، ليصبح أول محل يستخدم منظر الشلال الصناعي والمياه الجارية على الزجاج الخارجي.

لهذه السيدة الغيداء معزّة خاصة في قلبي، فقد اعتادت أن تعطي لجدتي ما لا يقل عن خمسة برطمانات من مربى التوت التي تصنعها في المنزل، والتي أعشقها بشكل يفوق الوصف، وأكاد أجزم بأنني سأصاب يومًا ما بمرض السُّكري من فرط تناول مربى جارتنا فتون.

لست الوحيد الذي يعشق هذه السيدة ذات الصوت الوديع واللمسات الحنونة، فالجميع يحبونها، ليس فقط لأنها صاحبة أرقى ذوق في اختيار الهدايا وتزيين باقات الورد، بل لأن السيدة فتون البالغة من العمر خمسة وخمسين عامًا امرأة ملائكية، خُلقت لتنشر البهجة بيننا، ففي كل مناسبة تنزل الشوارع وتوزع الورد على الناس، في عيد الشرطة تتجه إلى

قسم قصر النيل وتوزع الورد الأبيض على الضباط والعساكر والأمناء، وفي الصيف توزع المياه الباردة على عساكر المرور لترحمهم من حرارة الجو، وفي عيد الفطر توزع علب الكحك بالملبن على حارسي العقارات والباعة الجائلين، وفي عيد الحب تضع تخفيضات خرافية لا مثيل لها على باقات الزهور، وتقف أمام محلها بعربة بلاستيكية مزينة بشكل مبهج وكلما مر أمامها حبيبان أعطتهما وردة مجانية بابتسامة تأسرك.

لمحتنا عندما نزلنا من السيارة. ولم يكن حب قطز لها يقل عن حبي، وفور أن رآها أقبل عليها، وقبَّل وجنتيها، فعانقته، وشخشخت أساورها الفضية ذات الرموز الفرعونية وهي تقول:

- الظبابيط الحلوين عاملين إيه؟

أجبتها ممازحًا:

- مفيش حد في الكوكب بيقول «ظبابيط» دي غيرك!

- عشان أنا مفيش مني اتنين يا ولد.

- لا منك ولا من مربتك. وبالمناسبة هي الـ...

- المربى بتاعتك هتوصلك قريب، المرَّة دي أنا عاملاها بطريقة جديدة هتخليك تاكل صوابعك وراها. مش هتشتري

ورد؟

أجابها قطز:

ـ لمين يا حسرة؟!

ـ للبنوتة اللي بتحبها.

أجبتها:

ـ بنوتة مين يا طنط؟! صباحك مربى!

ـ الكلام مش ليك يا أبو قلب ناشف. قولي إنت يا قطز، مفيش حاجة كده ولَّا كده؟

أجابها ساخرًا:

ـ يووووووه، ده فيه وفيه وفيه. ماما الله يباركلها عايزة تجوزني «استشهاد»!

تعجبت قائلة:

ـ استشهاد! مش دي بنت خالتك رتيبة؟

ـ هي. طب بذمتك أنا أتجوز واحدة اسمها «استشهاد»؟

أجبته ساخرًا:

ـ ده على أساس إن اسمك «لؤي»؟!

قالت السيدة فتون بحيادية:

- بغض النظر عن اسمها، إيه اللي مش عاجبك فيها؟

- مش باحبها يا طنط! ده أنا ما باطيقش خالتي نفسها، أقوم أتجوز بنتها وأخليها حماتي؟!

- إوعى تتجوز غصب عنك يا قطز. مش كفاية خلوك ظابط بالعافية!

- والنبي قوليلها عشان أنا خلاص الخطوة الجاية هابلبع حبوب وأنتحر!

- بمناسبة الحبوب، هنروح لطارق في الصيدلية ونرجعلك تاني، مش عايزة حاجة يا طنط؟

- لأ يا حبايبي. في رعاية الله.

* * *

دخلنا الصيدلية التي تدلت على بابها ستائر من القلوب البلاستيكية المزعجة، ووُضِعت على واجهتها الزجاجية ملصقات لملائكة محلّقة بمناسبة عيد الحب الرتيب الذي انتشرت زينته الحمراء كالجدري في المقاهي والمحال في القاهرة.

وجدنا طارق جالسًا تحوطه أرفف الأدوية، مشدودًا بكل

حواسه إلى شاشة التلفزيون الذي يعرض مسلسلًا وثائقيًا على قناة «ناشيونال جيوغرافيك»، حتى إنه لم يلحظ دخولنا، فصحت به مباغتًا إياه:

ـ طارق!

جفل المسكين وراح يتلفت حوله كمن سمع عفريتًا:

ـ حرام عليك يا نوح!

ـ دا إنت لُقطة. أي عيِّل نُص سِوا هيدخل يقلِّبك ويطلع وإنت ولا حاسس!

نظر قطز ناحية شاشة التلفزيون المعلَّقة على عمود الجدار، وسأل طارق باهتمام:

ـ مش ده مسلسل «العبقري» بتاع قصة حياة أينشتاين؟

ـ آه، إنت متابعه؟

ـ طبعًا. شُفت الحلقة لما اتحدى البروفيسور فيليب لينارد في المحاضرة؟

ـ آه، ولما اتخانق مع ميلفا مارتش، و...

قطعت حماسهما العلمي، إذ كلما اجتمع قطز وطارق، لا تجد نهاية لحديثهما الثقافي:

- والنبي اقفلوا صفحة ويكيبيديا اللي فتحتوها دي، واطفيلنا التلفزيون ده عشان عايزينك في موضوع مهم.

اضطرب طارق قائلًا:

- فيه إيه؟! نادية اشتكتلك من حاجة؟

- وهي نادية محتاجة تشتكي لحد؟! دي تخلَّص لوحدها على طول!

أطفأ التلفزيون قائلًا:

- إنت هتقولي! أومال إيه سبب الزيارة الكريمة دي؟

أجابه قطز:

- عايزين منك معلومات عن مادة اسمها الأتروبين.

- آه. دي موجودة في بعض أدوية القلب وقطرة لتوسيع حدقة العين في العمليات و...

- عارفين الكلام ده، بس عايزين نفهم هي سم ولَّا مخدر.

- نسبة الأتروبين الموجودة في الأدوية اللي في الصيدليات مش مخدرة، ولا بتسبب الإدمان، لكن المادة الخام للأتروبين بتسبب هلاوس، وفي العصور الوسطى كانوا بيستخدموها كمخدر.

- والمادة الخام دي بتتجاب منين؟

- من مشتقات قلويدات الأتروبا الموجودة في نبتة البيلادونا، أو بالعربي شجرة ست الحسن. أعراض التسمم بيها بتبدأ بعد حوالي ساعتين تلاتة من هضم السم، وكل ما كانت الجرعة أكبر كل ما كان ظهور الأعراض أسرع، إلا لو كان السم اتحط في وجبة دسمة فالتأثير بيبقى أبطأ.

- والسم ده بيتباع فين؟

- الحصول عليه صعب جدًّا، لازم تجيبه من المعامل أو من الشجرة نفسها.

- الشجرة دي بتتزرع في مصر؟

- ما أقدرش أفيدك في الحتة دي، لكن خليني أأكدلك إنه صعب جدًّا تلاقي سم الأتروبين في أي مكان.

* * *

جلسنا في مقهى البستان بعد أن اشترينا الساندويتشات من فلفلة، وطلبنا المشروبات الساخنة.

ارتشفت القهوة، بينما ظل قطز يحدق في صمت إلى مصباح الإضاءة باريسي التصميم، فظننته يراجع معلوماته التاريخية عن ماضي مقهى البستان أو تاريخ إنارة العمود أو

أيٍّ من تفاصيل قطز الثقافية الغريبة، لكنه قال:

- البيلادونا دي سمعت عنها قبل كده، مش فاكر فين، بس واثق إن حد مهم مات بسمها.

- لحد ما تفتكر، عايزين نعرف السم اتحط في إيه.

- باقولك يا نوح، الدنيا هادية وضلمة، ما تيجي.

نظرت إليه بارتياب:

- آجي إيه بالظبط؟! اتعدل!

- تيجي نكلم أرواح العيال.

- آه. أنا كنت ناوي أعمل كده.

وزفرت قائلًا:

- ربنا يستر!

- ليه؟ فيه إيه؟

- فيه إيه؟! أصلك ما شُفتش العيال دول بيعملوا إيه على الكوبري!

* * *

يزداد نشاط الأرواح ليلًا.

هكذا أمسى لعب الأطفال ومرحهم هستيريًا.

كان الكوبري خاليًا من المارة والحركة عدا صريخ وصياح أرواح الأطفال الذين يتنادون بصوت عالٍ، ويركضون على السور كالبهلوانات، ويجرون خلف بعضهم ويلعبون الغميضة.

أراد قطز أن يأتي معي، لكني لا أشعر بالراحة عند التحدث مع الأرواح أمام الأحياء، فأصررت على الذهاب بمفردي، وصففت سيارتي على جانب الكوبري ونزلت منها ممسكًا بالليمونة.

وقفت مترددًا، فأنا لم أتحدث يومًا مع هذا العدد الكبير من الأرواح في الوقت نفسه، ولم أرَ أرواحًا بهذا النشاط من قبل.

كانت أصوات ضحكهم ومرحهم عالية، لا أظن أنهم كانوا بهذه السعادة وهم أحياء. داروا حول أنفسهم في دوائر وهم يلعبون، فشققت الليمونة نصفين، وإذ بالأطفال كلهم يلتفتون نحوي ويحدقون إليَّ بطريقة مريبة، فقلت مترددًا:

- السلام عليكم، أنا نوح الـ...

قبل أن أكمل جملتي، ركضوا نحوي مهللين، وهجموا عليَّ كمحاربي طروادة. امتدت أياديهم الشبحية لانتشال الليمونة من بين أصابعي قائلين:

- لمون، لمون، لمون.

صحت بهم محاولًا أن أخفي الخوف والرجفة اللذين أصاباني:

- بالراحة، بالراااااحة!

تراجعت، لكنهم ظلوا يطوفون حولي بحماس طفولي مزعج وحيوية مفرطة، حتى التصق ظهري بالسور ولم يعد هناك مفر، فتحول خوفي إلى غضب:

- ابعدوا! انصرفوا يا بقر!

لم أعد أحتمل الطاقة الكهرومغناطيسية المتولدة عن خمس عشرة روحًا يعانون من نشاط مبالغ فيه، فألقيت الليمونة جهة النيل، فحلقوا في الهواء وطاروا خلفها ونزلوا في النهر.

شعرت بالوهن مع تسارع نبضات قلبي وخفقانه، فابتعدت عن السور لاهثًا. وقبل أن أصل إلى سيارتي، ظهرت أمامي روح الرجل ذي الشعر الفضي والكنزة الصوفية قائلة:

- إنت شايفنا، صح؟

حاولت أن أنظم أنفاسي وألا أعلق مع روح جديدة، لكنه أضاف بابتسامة هادئة:

- هتعمل نفسك مش شايفني زي كل يوم؟

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلت بهدوء مستسلمًا:

- السلام عليكم، أنا نوح الألفي.

مد يده ليصافحني قائلًا برُقي:

- وعليكم السلام، أنا ياسين الجارحي.

- بلاش لمس، الله يباركلك!

لم يفهم ياسين ما قلته، لكنه أخفض يده ونظر إلى الأطفال الذين بدأوا يخرجون من النهر ليكملوا لعبهم، وقال:

- مساكين! فاكرين نفسهم اتحولوا لأبطال خارقين مش إنهم أرواح ميتين!

- إنت اتكلمت معاهم؟

- دول هما اللي مسليبني. صحيح، إنت شايفنا إزاي؟ وسيط روحاني زي الأفلام الأمريكاني؟

- حاجة زي كده.

- واكتشفت الحكاية دي إمتى؟

لم أكن في مزاج لأقص عليه حكايتي مع جبل الموتى، فغيرت دفة الحديث قائلًا:

ـ إنت مُت إزاي؟

ـ كنت قاعد في عربيتي ومُت فجأة بدون أي مقدمات.

ـ بالبساطة دي؟

ابتسم قائلًا:

ـ هو الموت لازم يبقى معقَّد؟

ـ أنا بس عشان متعود إن الناس يا بتموت مقتولة، يا مسمومة، يا مدبوحة، وكون حد يموت موتة طبيعية ده اختراع بالنسبة لي.

تأملت ملامحه لثوانٍ، ثم علقت مضيفًا:

ـ أنا شُفتك فين قبل كده؟

ـ إنت بتّنحلي كل يوم وإنت معدي على الكوبري.

ـ مش قصدي وإنت ميت، شُفتك وإنت حي.

ـ لو بتروح الأوبرا فأكيد شُفتني، أنا مايسترو و...

ـ أيوه صح، ياسين الجارحي. أنا جدتي حضرتلك حفلة قبل كده وخلتني أصورها معاك.

ـ فعلًا؟

ـ جدتي بتحب الأوبرا جدًّا.

ـ ده شيء عظيم! قولي يا...

ـ نوح.

ـ قولي يا نوح، إنت عايز إيه من الأطفال دول؟

ـ أنا باحقق في قضية قتلهم.

ـ أخيرًا حد قرر يجيبلهم حقهم! طب وصلتوا لإيه؟

ـ اتقتلوا بمادة سامة، كان فيه حد قاصد يقتلهم، مش صدفة ولا أكل بايظ.

ـ وكنت عايز تكلمهم في إيه؟

ـ كلوا إيه؟ أو شربوا إيه؟ مين اللي أكلهلهم؟ أي معلومة تفيدنا. بس هم مهيبرين بزيادة زي ما إنت شايف.

ثبت نظارته الذهبية على أنفه، ثم قال:

ـ لعلمك، دول أطفال لطاف جدًّا، محتاجين بس شوية صبر.

ـ أصل أنا مليش خُلق للعيال!

ـ أنا ممكن أكلمهملك. شوف عايز تعرف إيه وأنا أسألهم.

ـ لو عملت كده يبقى كتَّر خيرك و...

- بس محتاج منك خدمة صغيرة.

كنت واثقًا من أنه لا توجد روح ميت تقدم مساعدة مجانية في هذا الزمن، فقلت له:

- خدمة إيه؟

- قول لبنتي الكبيرة بابي بيقولك ما تتجوزيش كريم.

حككتُ ذقني قائلًا:

- بابي مين؟

- أنا. روح لبنتي و...

قاطعته ساخرًا متخيلًا مشهد لقائي بابنته:

- أروح لبنتك أقولها أنا شُفت بابي الميت على كوبري قصر النيل لابس بلوفر صوف، وبيقولك ما تتجوزيش كريم، آه، نسيت أعرَّفِك بنفسي، أنا نوح الألفي اللي بيشوف الأرواح؟!

- أكيد مش هتقولها كده، إنت ذكي وأكيد هتلاقي طريقة. أنا اكتشفت إني أقدر أروحلها بمجرد ما أفكر فيها، بس هي لا بتشوفني ولا بتسمعني!

- اطلعلها في الحلم وكلِّمها.

- إزاي؟

ـ اقف عند طرف سريرها وهي نايمة واتكلم معاها، الروح بتنفصل عن الجسد في وقت النوم وبتقدر تشوف أرواح الميتين.

ـ إنت متأكد من الكلام ده؟

ـ على ضمانتي.

أغلق عينيه ليرحل، لكني استوقفته:

ـ استنى، رايح فين؟

ـ هاروح لبنتي قبل ما تتجوز.

ـ أكيد بنتك مش هتتجوز وأبوها لسه ميت، فممكن نستنى ونشوف موضوع العيال ده الأول؟

ـ إنت مش فاهم! أنا اللي ضغطت عليها عشان تستمر في الخطوبة. في الأول كانوا بيحبوا بعض، وبعد ما اتخطبوا وميعاد كتب الكتاب قرب قالتلي «أنا عايزة أسيبه يا بابي عشان حاسة إنه بيخوني»، بس أنا افتكرتها بتتدلع أو إن دي غيرة بنات ملهاش لازمة، فرفضت، خصوصًا إن والد كريم يبقى صديق عمري وما أقدرش أبقى في موقف محرج زي ده معاه، لكن لما مُت وبدأت أراقب تصرفاته اكتشفت إن عندها حق، وإنه فعلًا حقير وبيخونها، وأنا مش...

ـ مش عايز بنتك تكمل حياتها مع واحد خاين بسببك، مفهوم مفهوم. ساعدني بس في القضية دي وإن شاء الله كله هيبقى تمام.

ـ طيب، عدِّي عليَّ بكرة في نفس التوقيت.

٢

في تمام الواحدة بعد منتصف الليل، وقفت في المكان نفسه على كوبري قصر النيل، واضعًا سماعة البلوتوث في أذني حتى لا يظن أحدهم أنني مجذوب يحدث نفسه.

ظهرت روح المايسترو ياسين الجارحي بجواري، وبوجه مشرق قالت لي:

ـ لقيتلك الإجابة، تعالَ معايا.

مشينا حتى تمثالي الأسدين في مدخل الكوبري، ووقفنا أمام واحد يمتطيه طفل سمين في التاسعة من عمره، يهتز فوق الأسد الشامخ فيتحرك جسده الرخوي بشكل متموج وهو يقول:

ـ شيييييي، شيييييي.

كان يظن الأسد حمارًا يمتطيه في الحقل، فقلت لياسين محبطًا:

ـ هي دي الإجابة؟

ـ ده ولد في غاية الذكاء.

ـ ذكاء إيه؟! ده فاكر أسد قصر النيل حمارا!

ـ ما تتسرعش في حكمك!

نادى على الطفل:

ـ يا بطيخة، انزل يا حبيبي.

أجابه الطفل بصوت يلهث من بين دهونه وشحومه:

ـ أنا بطل خارق وراكب أسدا!

ـ طب انزل دلوقتِ ونبقى نركب الأسد بعدين يا بطيخة.

ـ اسمي سوبر بطيخة!

ـ طب انزل يا سوبر بطيخة عشان تساعدنا. مش السوبر هيروز بيساعدوا الناس؟

زفر الطفل، وقفز من فوق التمثال، بسترته الممزقة وحذائه المثقوب وبنطلونه المتسخ، ليقف أمامنا لاهثًا، فقال له ياسين بحنان:

ـ بطيخة يا حبيبي، احكِ لأنكل إنت شُفت إيه.

حك رأسه قائلًا:

ـ هه؟ بتقول إيه يا أستاذ ياسين؟

اقتربت منه قائلًا:

ـ إنت شُفت إيه يا بابا؟

ـ هات بورجار وأنا أقولك.

ـ إيه؟!

ـ طب هات بوزو.

ـ يا حبيبي إنت مُـ...

ـ هات بيبس طاااه.

ـ اللهم طوِّلك يا روح!

زفر وأشار لي أن أقترب:

ـ تعالَ أقولك في ودنك.

اقتربت، فبدأ يهمس في أذني بعد أن ظل يتنفس فيها لفترة طويلة:

ـ معاك ملبس؟

صحت به:

ـ يا ابني! يا ابني ما تخنقنيش بقى!

قال ياسين:

ـ بطيخة يا حبيبي، هنديلك اللي إنت عايزه، بس قوله اللي

حكيتهولي.

أشار إليَّ أن أقترب ثانية، فقلت معترضًا:

- إنت بتوشوشني ليه؟! ما تحكي وتخلصني!

بكى صائحًا:

- إنت بتزعقلي؟! طب والله ما هاحكيلك حاجة!

كاد أن يرحل، لكني استوقفته قائلًا:

- خلاص يا حبيبي، أنا راجل قليل الأدب. اتفضل احكِ.

مسح دموعه قائلًا:

- هات ودنك.

أطعته مضطرًّا، فبدأ يتكلم ببطء ويتنفس بصعوبة بين الكلمة والأخرى:

- فيه راجل سايق عربية سودا كبيرة وزَّع علينا عصير بتنجاني.

- بتنجاني؟!

- لونه بتنجاني وطعمه مسكَّر. كلنا شربنا منه وبطننا وجعتنا. رُحنا المستشفى بس من كُتر الوجع نمنا وصحينا لقينا نفسنا أقويا وبنطير في السما وبنعوم في النيل

ومختفيين محدش يقدر يشوفنا.

ـ شكله إيه الراجل ده؟

ـ طويل ورفيع وأسمر ولابس جلابية بيضا وطاقية حمرا ونضارة شمس مخبية نص وشه.

ـ لو شُفت الراجل ده تعرفه؟

ـ أنا سوبر بطيخة، وعارف الناس كلها. هات شوكولاطة.

ـ هاجيبلك بس كمِّل، تعرف اسم الراجل ده؟

ـ لأ، أول مرة أشوفه.

ـ طب سمعته بيقول حاجة أو...

ـ ده راجل أخرس بيتكلم بالإشارة.

ـ طب كان فيه حاجة مكتوبة على علبة العصير اللي وزَّعها عليكم؟

ـ ما كانتش علبة، كانت إزازة كبيرة بيكب منها في كوبايات بلاستيك.

ـ طب والعربية اللي كان بيسوقها؟

قال ياسين:

ـ بطيخة حافظ رقمها و...

قاطعه الطفل صائحًا بغرور:

ـ سوبر بطيخة.

قال ياسين ضاحكًا:

ـ أنا آسف يا سوبر بطيخة.

رفع رأسه بشموخ، ثم أشار لي حتى يكمل حديثه في أذني:

ـ أنا باحفظ أرقام كل العربيات من بصة واحدة بس.

ـ تصدق ياض إنت فعلًا سوبر! إيه رقم العربية؟

ـ ما أنا مش باعرف أقرا ولا أكتب.

ضربت خدي قائلًا:

ـ ألطم؟! ألطم على وشي؟!

ـ أنا ممكن أرسمهالك، أنا بارسم حلو أوي. أرسملك كلب؟

ـ كلب إيه يا بابا؟! إنت مش هتعرف تمسك ورقة وقلم!

ـ ليه؟! هو أنا اتشليت؟!

ـ لأ، مـ...

توقفت عن الكلام وتراجعت عن إخباره بأنه أصبح من

الأموات، وزفرت ووضعت يدَي على خصري مفكرًا، ثم أخرجت دفتري الصغير وقلمي من جيبي قائلًا:

ـ إنت حافظ شكل اللوحة كويس؟ يعني لو شُفتها تعرفها؟

ـ باقولك سوبر بطيخة.

فتحت الدفتر، وبدأت أكتب الحروف العربية بالترتيب قائلًا:

ـ ماشي يا سي سوبر بطيخة، لما نشوف.

أنهيت كتابة الحروف العربية، ومن بعدها الأرقام من صفر إلى تسعة، وأوضحت له:

ـ دي كل الأرقام والحروف. قولي شُفت إيه منها على لوحة العربية بالترتيب.

نظر إلى الدفتر، ثم التفت إليّ وقال ممتعضًا:

ـ خطك نكش فراخ!

ضربت نفسي بالدفتر، ثم قلت لياسين:

ـ إنت ما لقيتش غير العيِّل الجلياط ده أكلمه؟!

ـ ما ده الوحيد اللي خد باله من لوحة العربية!

قال بطيخة:

ـ اشتريلي حلبسة.

ـ هاشتريلك كل عربيات الحلبسة اللي في الكوكب، بس ارحم أمي وانجزا

دقق النظر في الدفتر، ثم اختار الأحرف: ق ب ر، ومن الأرقام ٥، فقلت:

ـ وباقي الأرقام؟!

ـ هو الرقم ده مكتوب تلات مرات جنب بعض.

ـ متأكد من ترتيب الحروف والأرقام ده؟

نظر إليّ بثقة منقطعة النظير:

ـ عيب عليك! دا أنا سوبر بطيخة!

* * *

أخبرني وليد ـ زميلي ضابط المرور ـ أن هذه السيارة تابعة لمكتب تأجير سيارات في التجمع الخامس، فذهبت أنا وقطز إلى مقره بعد أن قصصت عليه ما حدث مع أرواح الأطفال، فتأثر واغرورقت عيناه بالدموع لأنهم يظنون أنفسهم قد تحولوا إلى أبطال خارقين بسبب مشروب سحري، ولا يدركون أنهم صاروا موتى بسبب عصير مسمم، مما أشعرني

بأنني إنسان بلا إحساس أو عاطفة حيث لم أتأثر بالقدر نفسه، وربما ذلك لأنني أرى أرواحهم فلا أشعر بهم كموتى أو ضحايا، كما أنني رأيتهم يلهون ويلعبون وهم أسعد مما كانوا عليه أحياءً.

وصلنا إلى المكتب الأنيق الذي يملكه شاب يرتدي حذاءً لامعًا ويضع عطرًا ثقيلًا، وقد رحَّب بنا بابتسامة بلاستيكية قائلًا:

- أخدم حضراتكم بإيه؟

- عايزين نعرف مين اللي أجَّر من عندكم عربية سودا عالية رقمها ق ب ر ٥٥٥؟

- مين اللي أجَّرها إمتى بالظبط؟

- يوم الأربع ١ فبراير، ما بين الساعة اتناشر لاتنين الضهر.

- لحظة.

خرج من مكتبه النظيف ثم عاد بصورة بطاقة قائلًا:

- دي صورة بطاقة اللي أجَّر العربية.

كانت تحمل اسم «خيري مدحت أمجد شلهوب»، جراح مقيم في فيلًا في التجمع الخامس.

* * *

قال قطز ونحن في طريقنا إلى فيلّا صاحب البطاقة:

- بانت كده يا معلم، جراح ومش صعب عليه يجيب السم.

- إيه اللي يخلي جراح محترم يسمم أطفال الشوارع؟!

- هنجيبه من قفاه ونخليه يعترف، ده المفروض يبقى عبرة لمن يعتبر!

ثم حك ذقنه قائلًا:

- بس برضو هاموت وأعرف أنا سمعت عن شجرة البيلادونا دي فين قبل كده؟

* * *

وصلنا إلى الفيلّا المترفة، ولم نجد لها بوّابًا.

فتحنا البوابة الحديدية التي لم تكن موصدة، ومررنا من الحديقة المهملة ذات مقاعد الخوص المتربة، واقتربنا من الباب الخشبي الأنيق، وقبل أن أطرقه شعرت برجفة لا تنتابني إلا عندما تلمسني روح.

استدرت لأجد روح رجل في مقتبل الستينيات، قصير وأصلع، وجسده هزيل، وعيناه ذابلتان، ويرتدي نظارة

مستديرة، ويضع رداء نوم صوفي فوق منامته المخططة طوليًا.

نظر إليّ متعجبًا، ودُهشت عندما أدركت أنه الجراح خيري شلهوب. أخرجت صورة البطاقة ثانية ونظرت إلى صورته فيها ثم إليه، إنه هو بلا شك!

راح قطز يطرق الباب، بينما قال لي الرجل بنبرة تائهة:

ـ ما شُفتش فاطمة؟

ـ دكتور خيري؟

التفت قطز حوله قائلًا:

ـ شكله مش جوه و...

أشرت إليه أن يصمت، وقلت لروح الطبيب:

ـ السلام عليكم يا دكتور، أنا نوح الألفي.

ارتبك قطز، ونظر إلى حيث أوجه حديثي، ففهم ما يدور وسألني هامسًا بتحفظ:

ـ نوح، هو الدكتور... إنت بس اللي شايفه؟

هززت رأسي إيجابًا، بينما أعاد الطبيب سؤاله:

ـ ما شُفتش فاطمة؟

- فاطمة مين يا دكتور؟!

- مراتي. قالتلي إنها هنا. شُفتها؟

- هي ماتت؟

هز رأسه، ثم أضاف:

- بس أنا رُحتلها.

- رُحتلها إزاي؟ مين اللي قتلك؟

نظر حوله كالضال وهو يكرر مخرفًا:

- ما شُفتش فاطمة؟

- هاساعدك تلاقيها، بس قولي إنت مُت إزاي؟

عبس وقال غاضبًا:

- مش عايز! مش عايز منك حاجة! أنا هادوَّر عليها بنفسي!

- استنى يا دكتور، أنا...

أتى من يميني صوت ناعس يملأه الخمول، قال صاحبه:

- أيوه يا أساتذة، فيه حاجة؟

التفتنا لنجد بوَّاب الفيلَّا يفرك عينيه خارجًا من غرفته الصغيرة في الجهة اليسرى من الحديقة، بينما اختفت روح

الطبيب.

قال قطز:

ـ دي فيلّا الدكتور خيري شلهوب؟

ـ الله يرحمه.

ـ هو مات إمتى؟

ـ آخر يناير، قبّضني من هنا واتكل على الله!

سألته:

ـ هو مات إزاي؟

ـ أنا برضو لسه ما عرفتش الأساتذة يبقوا مين!

ـ الأساتذة يبقوا مباحث. اخلص. خيري مات إزاي؟

ـ لا مؤاخذة يا باشا، الدكتور انتحر، ما استحملش الحزن على الست فاطمة.

ـ فاطمة دي مراته؟

ـ أيوه يا باشا. ما كانتش بتخلّف، وهو كان بيدوب فيها دوب، وفضلوا عايشين ملهمش غير بعض، لحد ما ماتت في حادثة عربية، والدكتور ما استحملش، وبعديها بشهرين انتحر.

ـ انتحر إزاي؟

ـ حط لنفسه سم في العصير.

* * *

الأمر برمته غير منطقي!

جمعنا ملفات التحقيق في وفاة خيري، وعدنا إلى المكتب في محاولة لتحليل الأمر، فقال قطز:

ـ يعني خيري جاب سم الأتروبين، وحطه في العصير، وأجَّر عربية، وطلع على كوبري قصر النيل وزَّع العصير المسموم على العيال، ورجع بيته وانتحر بنفس السم؟

ـ إنت مش مركز، وشكلك عايز تنام!

ـ ليه؟

ـ شهادة وفاة خيري طلعت بتاريخ ٣٠ يناير، والعيال اتسمموا ١ فبراير!

ـ يعني إيه؟ مات وعفريته سمِّم العيال؟!

ـ يعني مات، وحد سرق بطاقته أجَّر بيها العربية وسمِّم العيال. أوصاف خيري مش متطابقة مع اللي بطيخة قالي عليه، اللي سمِّم العيال راجل طويل ورفيع وأسمر وأخرس.

ـ يبقى الراجل ده هو اللي قتل الأطفال وخلى خيري ينتحر؟

ـ خيري اتقتل ما انتحرش.

رفع حاجبيه مستفهمًا:

ـ إزاي؟! تقرير المباحث بيقول...

ـ بيقول إن الباب كان مقفول بس المفتاح مش موجود، وإنهم لقوا كوباية العصير اللي فيها السم على الترابيزة، لكن ولا لقوا إزازة السم ولا مصدر العصير نفسه.

ـ ترجملي.

ـ الراجل اللي وزّع العصير المسموم على العيال هو نفسه اللي دخل بيت خيري قبلها بيوم، وصبله من نفس العصير المسموم، وسرق بطاقته، وخرج وقفل الباب وخد المفتاح معاه عشان خيري ما يقاومش وما يلحقش يروح المستشفى لما تظهر عليه أعراض التسمم، نفس الاستراتيجية اللي اتبعها مع أطفال الشوارع، كان عارف إن مفيش مستشفى هتستقبلهم وتديهم الترياق.

ـ بس خيري كده كده ما قاومش لأن نفسه يموت ويشوف مراته، ولعدم وجود أعراض مقاومة أو محاولات استنجاد

افتكروا إنه انتحر.

- عشان بهايم وبيكروتوا التحقيق!

- طب إيه الرابط بين خيري وأطفال الشوارع؟

- الرابط هو الشخص اللي قتل الاتنين بنفس الطريقة، لو روح خيري ما كانتش مخرفة كده بسبب موت مراته كنت فهمت منه!

- تفتكر البوّاب اللي قتله؟

- لو كان البوّاب كان حطله سم فران، وبعدين ده أبيضاني وتخين، ودي مش مواصفات القاتل خالص.

زفر قطز وهو يفرك عينيه ويقول معترضًا:

- هو إحنا ليه دايمًا بنقع في قضايا حلزونية كده؟!

نهض وفتح اللابتوب، فسألته:

- بتعمل إيه؟

- هاحاول أشوف اسم شجرة البيلادونا ده أنا شُفته فين قبل كده، يمكن نطلع بمعلومة مفيدة.

٣

في الظهيرة، علقت في الزحام المروري على كوبري قصر النيل، وما زالت الأرواح الصغيرة تلهو حولنا، وما زال بطيخة يمتطي ظهر الأسد صائحًا:

ـ أنااااا سوووووبر بطيخاااااااة.

في الآونة الأخيرة، خرجت إشاعة تقول إن الكوبري مسكون، وذلك بسبب ظهور وجوه ضبابية غريبة في الصور التي يلتقطها المشاة ليلًا. والذي لا يعلمه مستخدمو الإنترنت أن الكاميرات لديها قدرة على التقاط الهالات الطيفية للأرواح. بالطبع لا يظهرون بشكل واضح وصريح، لكنك تراهم بعينك البشرية العادية على هيئة ضباب أو دخان أو نور مخيف. وقد أُعجبت أرواح الأطفال بهذه اللعبة، وكلما وقف أحد المشاة لالتقاط صورة، حلق الأطفال خلفه، وبعد أن يتفحص الشخص صورته يلاحظ وجود شيء مخيف فيها، فيظل يتلفت حوله ويهرب مرتبكًا، فتقف أرواح الأطفال ضاحكة ساخرة!

شاهدت روح ياسين، وكان يتأمل السيارات كعادته، لكن عندما رآني عالقًا في الزحام المروري، اقترب مني وجلس في السيارة قائلًا:

- وصلت لحاجة؟

- الدنيا اتعقدت أكترا

- إن شاء الله هتتحل وهتقبض على اللي عملها.

- إن شاء الله.

- أنا طلعت لبنتي في الحلم زي ما إنت علمتني، فصحيت من النوم وكلمت كريم وسابته.

- طب الحمد لله، أهو حد فينا نجح في حاجة.

رن هاتفي، كانت أمي تتصل بي، فأخرست الرنين، بينما قال ياسين:

- لو حابب تتكلم على انفراد أنا ممكن أمشي.

- لا، أنا مش فاضي أرد.

- ما إنت ما وراكش حاجة أهو. رد لتكون والدتك عايزاك في حاجة ضرورية.

- أنا عارف هي عايزاني في إيه.

- فيه مشاكل بينكم؟ احكيلي، آدينا بنتسلى.

- أفضَّل نتسلى بحاجة غير مشاكلي العائلية.

ـ ما أقصدش أتطفل عليك، بس إنت مش ضامن هتسمع صوت والدتك تاني ولّا لأ.

نظرت إليه مستفهمًا، فأكمل:

ـ كنت مغرم بالموسيقى، درست في إيطاليا وفرنسا، وبقيت أستاذ في الكونسرفتوار، واشتغلت في الأوبرا، ولفيت العالم، لحد ما قرَّبت من الأربعين وكنت لسه ما اتجوزتش. عمري ما فكرت في الجواز وتكوين أسرة والكلام الفارغ ده، على قد ما فكرت في إن قلبي يُدق. وفعلًا دق في فينيسيا لما اتعرفت على يسرا. كان عندها معرض رسم، هي فنانة تشكيلية، وحد من صحابي عزمني على معرضها صدفة، وأول ما شُفتها عرفت إني هتجوزها، وفعلًا عشت معاها أحلى خمسة وعشرين سنة جواز. ما أظنش إني ممكن أحب حد في الدنيا قدها، لكن شوف بقى مع الحب ده كله دبينا خناقة غريبة، كانت أول مرة نتخانق بالشكل ده، لدرجة إني سبتلها البيت ورُحت شقة بابا اللي في الزمالك. تاني يوم كان عندي بروفة في الأوبرا والدنيا كانت زحمة، وأنا قاعد في العربية لقيت التلفون بيرن برقمها، بس أنا كنت مقموص وما رضيتش أرد، زي ما إنت عملت كده، وقفلت الصوت، وقبل ما أرجَّع الموبايل مكانه كنت مُت! لو كنت أعرف إن دي آخر فرصة هاسمع فيها صوتها أكيد كنت رديت! الحياة غريبة!

إنت مش عارف أنهي كلمة هتبقى الأخيرة! ولا أنهي فرصة هتبقى آخر فرصة ليك! العمر مش مضمون يا نوح!

بدأت السيارات تتحرك شيئًا فشيئًا، بينما أكمل ياسين بحزن:

ـ المضحك إني مش عارف سبب الخناقة، بس عارف إن يسرا شايلة ذنب إني مُت زعلان منها!

ـ كلمتها في الحلم وهوِّنت عليها؟

ـ حصل. صحيت فضلِت تعيط، وأول ما البنات دخلوا عليها مسحت دموعها ومثلت إنها كويسة. هي دايمًا كده، تحس إن رجليها واجعاها فتدوس عليها أكتر، تحس بألم في ضهرها فتشده أكتر، ضرسها يوجعها فتمضغ عليه بزيادة. طول عمرها بتعاند الوجع عشان تفضل ضهرنا وسندنا! كداب اللي يقولك إن الراجل هو عمود البيت! آديني مُت أهو والبيت لسه واقف على حيله! لو كانت يسرا هي اللي ماتت كان البيت اتهد!

ـ مش مظبوط. أنا لما والدي مات، أمي اتجوزت وخدت أختي وعاشوا في بيت جوزها، وأنا عشت في بيت جدتي، وبيت أبويا اتقفل، ومن ساعتها وفيه شرخ في العيلة مش عارفين نداويه!

ـ إنت كنت رافض جوازها؟

ـ أكيد.

ـ إشمعنى الراجل بيدفن مراته الصبح ويتجوز غيرها بالليل؟

ـ يعني لو يسرا اتجوزت إنت هتبقى مبسوط؟

ـ أنا بس اللي مُت. مش المفروض إن موتي يدفنها معايا تحت التراب!

ـ والله إنت رومانسي. أنا مش كده خالص.

ـ الله يعينها خطيبتك.

ـ خطيبة إيه؟! هو أنا لاقي وقت أهرش في دماغي!

ـ لما قلبك يدق هتلاقي وقت لكل حاجة.

ـ ده لما بقى.

ـ ليه التشاؤم ده؟ إنت عمرك ما حبيت؟

ـ حبيت مرة وأنا عندي تمن سنين، ومن ساعتها وأنا بادوَّر على واحدة شبهها.

ـ صاحبتك في الكلاس ولّا بنت الجيران؟

- روح في جبل الموتى.

قصصت عليه حكايتي مع جبل الموتى، وركزت على الشابة البدوية ذات البشرة الرائقة والعينين الواسعتين، التي مدت لي يدها بالليمونة، ودلتني على طريق التواصل مع الموتى.

- بتحب عفريتة؟!

- روح، مش عفريتة.

- طب وشُفتها تاني؟

- من خمس سنين كده رُحت جبل الموتى، بس ما شُفتش أي حاجة، لا البدو الخايفين ولا الفارس المحارب ولا الفرعون ولا هي نفسها.

- ما شكيتش قبل كده إن كل دي هلاوس سمعية وبصرية، وإن ده مجرد عقلك الباطن؟

- عيِّل عنده تمن سنين هيبقى كل ده في عقله الباطن ليه؟! أنا كان أقصى طموحي وقتها إني أحل ألغاز المحقق كونان.

ضحك قائلًا:

- يعني هي دي فتاة أحلامك؟

- مش فتاة أحلامي على قد ما حسيت إنها ملاكي

الحارس. يمكن عشان كان حب طفولي، وهي كانت فيها طيبة وابتسامة حنينة كده، ميكس غريب بين الرومانسية والأمومة. أنا عرفت بنات كتيرة بس كان دايمًا فيهم حاجة ناقصة.

- ما كلنا فينا حاجة ناقصة!

- بس اللي بيحب حد مش هيحس إن فيه حاجة ناقصة. أقولك؟ أنا مقتنع إن البنت اللي هاكمل معاها بقية حياتي هي اللي هاقدر أقولها إني باشوف الأرواح من غير ما أخاف، ومن غير ما تشوفني ملبوس زي أمي، ولا مجنون زي أختي!

هز ياسين رأسه، وقال بابتسامة دافئة:

- تفاءل يا نوح. يمكن القدر يفاجئك.

***

لا أتذكر أنني ارتحت لإحدى الأرواح بهذا القدر من قبل.

بدأت روح ياسين تزور غرفتي، وتجلس معي في الشرفة ليلًا. ولأول مرة أحزن لكون إحدى الأرواح سترحل عن الأرض وتتركني.

عندما علمت جدتي بوجود روحه في منزلنا كادت تبكي تأثرًا، وحرصت على أن أوصل إليه رسائل إعجابها وتقديرها

وإجلالها لموسيقاه، حتى إنها كانت تشغل معزوفاته طوال الوقت لتؤكد حبها الشديد له.

بنهاية الأسبوع، لن يتبقى سوى يوم واحد لروح ياسين في عالمنا، فغدًا هو اليوم الأربعون لروحه على الأرض، وقد دنت ساعة رحيلها.

في غرفتي تهيأتُ لأخذ قيلولة قصيرة قبل أن تعود جدتي التي حرصت على أخذ كلبينا في نزهة تصحبها فيها صديقتها.

وجاءني صوت روح ياسين:

- هاروح فين؟

- ده السؤال الوحيد اللي مش عارفله إجابة.

- طب بعد ما أمشي مش هاقدر أشوف يسرا والبنات تاني؟

- بيقولوا إن الميت بيشوف الناس اللي بيحبهم في أي وقت، بس محدش أكدلي المعلومة دي. لكن بابا كان بيزورني كتير في أحلامي بعد ما مات. صحيح كان بيقول كلام مبهم وشكله ما كانش واضح لكن كنت باشوفه في الحلم.

- يبقى لازم أقولهم إني ماشي. أنا باحكيلهم عن كل حاجة، حتى عنك.

ضحكت قائلًا:

- تصدق إن دي أول مرة من بعد وفاة بابا وجدي أحس إن فيه روح هتقطع بيَّ؟!

- وإنت كمان هتوحشني. بس أنا قلقان على يسرا والبنات من بعدي.

- مراتك وبنتك الكبيرة ما يتخافش عليهم، الصغيرة متهورة شوية، بس أختها هتاخد بالها منها.

رن هاتفي، فقلت لروح ياسين:

- بعد إذنك.

وأجبت سريعًا:

- فيه جديد يا قطز؟

- «مكبث» يا نوح! إحنا ماشيين في الطريق الغلط!

- أنا مش فاهم حاجة يا قطز.

- مسرحية «مكبث» بتاعة شيكسبير اللي خدناها في ثانوي و...

- مالها؟!

- المسرحية كانت فيها هدنة بين اسكتلندا والقوات

الإنجليزية التابعة للملك هارولد هارفوت، تمام؟

- انجزيا قطز عشان أنا جعان وعايز أنام ومش شايف قدامي!

- طيب طيب، مكبث قرر يخلص من القوات الإنجليزية، فعمل نبيذ سام، وشرب منه الجنود، وكان مفعوله قوي لدرجة إنهم ما كانوش قادرين يقفوا على رجليهم وماتوا على طول.

- فين الاكتشاف في اللي إنت بتقوله؟

- الاكتشاف إنهم ما ماتوش بسبب إن مكبث حطلهم سم في النبيذ، النبيذ نفسه هو السم!

- ورحمة أبويا ما فاهم حاجة!

- فاكر لما فضلت أقولك إني متأكد إني سمعت كلمة بيلادونا قبل كده؟ عشان كانت موجودة في مسرحية مكبث. دي شجرة بتطرح فاكهة بيسموها «توت الشيطان» عشان سامة، مكبث بقى خد التوت وعمل منه نبيذ. أطفال الشوارع والدكتور خيري كان محطوطلهم السم في عصير التوت. العصير ما كانش فيه سم، العصير نفسه هو السم! التوت هو المادة السامة! يعني بدل ما كنا بندوَّر على مين اشترى سم من الصيدلية هـ...

ـ هندوَّر على مين اشترى التوت من الشجرة!

ـ أو مين زرع الشجرة.

ـ هي ممكن تتزرع في البيوت؟

ـ هي دي المعلومات اللي نقصاني. محتاجك تعدّي على طنط فتون تسألها عن الشجرة دي، وتعرف منها إيه شروط زراعتها، ولو ينفع تتزرع في مصر والكلام ده.

وقفت متحمسًا:

ـ ماشي، أنا نازل دلوقتِ.

أنهيتُ المكالمة، والتفت إلى روح ياسين قائلًا:

ـ لازم أنزل عشان جد جديد في القضية.

ـ وأنا هاروح أودّع البنات.

***

استقبلتني السيدة فتون في منزلها بخمس ساندويتشات من المربى التي أعجز عن مقاومتها. أكلت الساندويتشات بنهم، وإني لقادر على التهام أضعافها، فقد كانت المربى أشهى من كل مرة إلى درجة أني لعقت أصابعي بعد أن فرغت من الأكل.

شاهدتني السيدة فتون وأنا آكل بشهية مفتوحة، وابتسمت بحنان عندما انتهيت، وقالت:

ـ أجيبلك تاني يا حبيبي؟

ـ دا أنا هاخد البرطمانات كلها وأنا مروَّح.

ـ أنا مجهزاهملك، هتاكل لحد ما تشبع.

ضحكت ثم شربت الماء، بينما قالت:

ـ قلتلي بقى عايز تسأل عن شجرة إيه؟

ـ البيلادونا.

ـ اسمها بالعربي «ست الحسن» أو «توت الشيطان» عشان بتطرح توت طعمه مسكَّر بس سام جدًّا، وشكله بيجذب الأطفال عشان بيفتكروه بلاك بيري، لكن لو أكلوا منه خمس ولَّا ست حبات يموتوا في خلال ساعتين تلاتة، وأكتر جزء سام في «ست الحسن» هو جذورها. وفيه مشاهير كتير في التاريخ ماتوا بسمها، زي الإمبراطور أغسطس، والإمبراطور كلوديوس. ولحد النهارده سم «ست الحسن» بيستخدم في جرايم القتل. اللي بالمناسبة سموها «ست الحسن» اللي هي ترجمة لكلمة بيلادونا عشان الستات كانوا بيستخدموا لون التوت بتاعها في التجميل، بيعصروه بطريقة معينة عشان

يتخلصوا من سمه، وبيعملوا منه روج أو أحمر خدود.

- والشجرة دي بتتزرع في مصر؟

- موطنها الأصلي أوروبا، بس برضو بيزرعوها في شمال أفريقيا وغرب آسيا، وبتحتاج لشمس قوية لمدة خمس أو ست ساعات في اليوم وتهوية، ومش بتشرب ميه كتير.

على ذكر الماء، شعرت بجفاف شديد ورغبة مميتة في شرب نهر النيل كله، فلم أترك دورق المياه الزجاجي من يدي، مما لفت انتباه السيدة فتون فسألتني:

- أجيبلك ميه تاني؟

- يا ريت، عشان السُكر بيعطشني جدًا.

- معلش، أنا كتَّرت السُكر المرة دي في المربى عشان كنت حاساها مُرة المرَّة اللي فاتت.

أحضرت لي دورقًا آخر من المياه، بينما دوَّنت كل المعلومات التي أخبرتني بها، ثم سألتها:

- سهل تلاقي بذور الشجرة دي في مصر؟

- ممكن تجيبها من أي مشتل وتزرعها في الجنينة أو فوق السطوح.

بدأت أشعر بحُرقة عينَي اللتين اشتاقتا إلى النعاس، حتى إن إضاءة المنزل آلمتني، فأغلقت جفوني وفركتها، وسألتني السيدة فتون بقلق:

ـ مالك يا حبيبي؟!

ـ عيني وجعاني من السهر.

ـ تحب تطلع تنام ونكمل كلامنا بعدين؟

ـ لا لا. كملي يا طنط.

ـ عندي فكرة، بدل ما أنا باصدَّعك كده تعالَ معايا.

ـ على فين؟

ـ عندي حاجة هتفيدك أوي.

٤

وجدت نفسي في سيارة السيدة فتون البيضاء، متجهَين إلى المقطم، وقد زادت حرقة عينَي وجفاف حلقي وصداع رأسي ورغبتي في النعاس. ليتني لم أذهب معها وأخلدت إلى النوم، فأنا أكره حالتي عندما يتمكن مني الإرهاق ويبدأ رأسي يؤلمني بهذه الصورة الضارية.

وصلنا إلى منطقة لم أرها في المقطم من قبل تشبه مدينة الأشباح، ليس لأنها تعج بالأشباح، بل لأنها خاوية، ومعظم المباني فيها لم ينتهِ إنشاؤها بعد، عدا فيلّتين متباعدتين. اقتربنا من إحداهما، لم يكن عليها بوّاب. أخرجت السيدة فتون مفتاحها وفتحت بوابة الفيلّا الصغيرة ذات الحديقة النضرة والعشب الأخضر، فقلت محاولًا أن أُبعد الإرهاق عن صوتي:

- بيت مين ده؟

- دي الفيلّا اللي عمر كان هيتجوز فيها.

عمر ابن السيدة فتون كان أحد تلامذة أمي في القصر العيني، لكنه تُوفِّي قبل زفافه بأشهر قليلة.

وقفنا أمام نبتة شجرية ارتفاعها متر ونصف، ذات أوراق بيضوية كبيرة، وأزهار بنفسجية تشبه الجرس، وتتدلى

من أغصانها الرفيعة ثمار في حجم الطماطم الكرزية لكنها سوداء لامعة.

بدأت أرتجف. أفهم أنني مرهق ومتعب من قلة النوم والجوع، لكن ليس إلى الدرجة التي تجعل نبضات قلبي تزداد ورؤيتي تهتز وعرقي يتصبب كمن أصابته حمى!

وضعت السيدة فتون يدها على كتفي برفق قائلة:

- إنت كويس يا نوح؟

حاولت أن أتماسك قائلًا:

- أيوه أيوه.

أشرت إلى الشجرة:

- هي دي بقى ست الحسن؟

قربت يدي نحوها، لكنها أبعدتها قائلة:

- إوعى تلمسها من غير جوانتي، سمها هيئذي جلدك لو لمستها بس.

بدأت ألهث مع ازدياد خفقان قلبي، وقلت متشبثًا بهدوئي الذي أخذ يتلاشى تدريجيًا:

- طب ما دام هي سامة أوي كده، إنتِ زارعاها هنا ليه؟!

ضحكت وقالت بنبرة لم أعتدها منها:

- نوح يا حبيبي، أنا مش عارفة دي ثقة فيَّ ولَّا سذاجة منك! هو إنت نسيت ابني مات إزاي؟

كاد قلبي أن ينفذ من صدري، وجف حلقي كصحراء جرداء، وتشبعت ملابسي بالعرق، وبدأت أحك جلدي كله وأسعل بقوة ورأسي يترنح وتوازني يختل كمن شرب برميلًا من الخمر.

تجلت مظاهر تعبي الذي لم تعد قلة النوم والإرهاق العاديين مبررًا مقنعًا له، فأنا لم أعد قادرًا على الوقوف على ساقَي.

ساندتني السيدة فتون برفق حتى أدخلتني إلى الفيلَّا.

كانت الفيلَّا مفروشة بالكامل، كأن هناك من يقطن بها. قالت لي جدتي من قبل إنه بعد وفاة عمر، اعتادت السيدة فتون الذهاب إلى الفيلَّا لتنظيفها والمكوث بين الأثاث الذي اشترته مع وحيدها.

أجلستني السيدة فتون على الأريكة المريحة، بينما جلست هي على الكرسي المقابل واضعةً ساقًا فوق الأخرى، وقالت بصوتها الحنون لكن بنبرة مريبة:

ـ زي النهارده من سنة عمر كان راجع من العيادة الساعة تلاتة الفجر، طلع عليه اتنين من أطفال الشوارع وكانوا عايزين يسرقوه، ولما قاوم طعنوه بمطوة ومات!

اللعنة!

يستحيل أن يكون شكي في محله!

ـ أنا اتطلقت وعمر عنده اتناشر سنة، ما طلعتش من الدنيا غير بيه، فلما جالي خبر إنه في المستشفى كنت هاتجنن. اتصلت بجراح صديقي من أيام الطفولة، هو الدكتور الوحيد اللي باثق فيه، واستنجدت بيه عشان يلحق عمر، لكنه فشل! خذلني وما أنقذش ابني من الموت!

حاربت الشلل الذي بدأ يصيب أطرافي، وقلت لها:

ـ الدكتور خيري؟

هزت رأسها باسمة:

ـ طول عمري باقول عليك ذكي، عشان كده لما قررت أجيب حق ابني لجأتلك إنت بس عشان تلاقي القاتل، بس زيك زي خيري، خذلتني وسبت اللي قتل ابني حر!

وددت أن أوضح لها أنني أخذت أوصاف القاتل من روح ابنها بعد مقتله، وبحثت عن قاتله في كل مكان ولكني لم

أجده، فأنا لا أعرف له اسمًا ولا دلالة، وأطفال الشوارع يحمون بعضهم بعضًا. أردت أن أصيح بها، وأخبرها أنني فعلت ما لا يقوى أحد على فعله، وخاطرت بكل شيء لأقتص لها ولجاري وصديقي عمر، لكن الوهن هيمن عليَّ ولم أتمكن من النطق!

كنت ملازمًا آنذاك، وصلاح هو النقيب المسؤول عن القضية.

صلاح!

ليتني ركزت في جملته التي قالها في المكتب راضيًا عن تسمم أطفال الشوارع:

«إيه يا سي نوح؟ نسيت جارك اللي عيِّل من دول ثبِّته وغزه؟».

لِمَ استهترت بكلامه ونسيت أن ذلك الجار هو عمر ابن فتون؟!

فتون! التي تملك محلًّا للورد ومشتلًا، الخبيرة بالنباتات، لديها دافع الانتقام، ومن السهل حصولها على نبتة «ست الحسن»!

نهضت من فوق مقعدها مع ازدياد رعشتي.

لم ألاحظ من قبل أنه عند النظر إلى فتون من الخلف فإنها تبدو كالرجل، بقامتها الطويلة وشعرها القصير وجسدها المسطح! وأنها لو ارتدت جلبابًا أبيض فضفاضًا، ووضعت قبعة على رأسها، وأخفت عينيها الأنثويتين بنظارة شمس كبيرة، وامتنعت عن الكلام حتى لا يُسمع صوتها الناعم، فسيظنها الناس رجلًا!

فتون هي مَن سممت أطفال الشوارع والجراح خيري شلهوب! ونوح الألفي!

عقدت ذراعيها قائلة بسخط ممزوج بالحسرة:

- ابني كان بيعالج أطفال الشوارع بالمجان في عيادته. عارف كام مرة المستشفيات رفضت تدخَّل واحد من الجرابيع دول وهو أصر يدخَّلهم على مسؤوليته الشخصية ويدفعلهم التكاليف؟! يقوم الكلاب دول يقتلوه في الفجر ويسيبوه ينزف في الشارع!

حاولت النهوض، لكني لم أشعر بساقَي وقد تمكن مني الإعياء الشديد، لكن فتون لم تتوقف عن الكلام:

- أنا اعتبرت خيري زي أخويا، واستنجدت بيه، لكنه اتأخر، وفي النهاية خرج من العمليات يقولي «أنا عملت اللي عليَّ»!

ضحكت متهكمة، ثم بدأت تصيح نحوي:

- وإنت كنت زي ابني، فضلت أقول عليك ذكي وشجاع، ويوم ما اعتمدت عليك طلعت زيك زي كل اللي في المجتمع القذر ده! أغبيا ومتقاعسين وناكرين للجميل!

رن هاتفي، فحاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أمد يدي لآخذه، لكنها أسرعت وأخرجته من جيبي، وعندما شددت معصمها دفعت يدي بقوة، فسقطتْ أرضًا عن الأريكة.

أجابت على الهاتف بنبرتها الهادئة:

- أيوه يا إحسان، نوح نسي موبايله عندي في المحل، ابقي قوليله ييجي ياخده لما يخلّص شغل. ماشي يا حبيبتي، سلام.

حاولت أن أصرخ، لكني لم أجد صوتي. حالة من الخدر المختلط بالحمى والإعياء سرت في بدني كله، وصارت لها الهيمنة واليد العليا على كل حواسي واستجاباتي، وما زال قلبي يركل صدري هلعًا!

الأمر بيِّن:

أحد أطفال الشوارع طعن عمر، ثم فشل خيري في إنقاذ حياته فمات عمر.

لجأت فتون إليّ فخذلتها كما خذلها صديقها الجراح.

ومحملةً بالكراهية والإحساس بالظلم، ظلت عامًا كاملًا تتظاهر بكونها الأم الراضية بقضاء الله. لم تصرخ، ولم تبكِ، ولم تُظهر أي نوع من السخط أو الاعتراض على أمر الله، بل ظلت توزع الورد والعصائر والمحبة على الجميع، فجعلتنا نظن أنها تخطت أمر وفاة ابنها، بينما في الواقع كانت تود أن تبعد عن نفسها الشبهات، فظلت متماسكة تحضر خطتها سرًّا، فللظلم والعدالة البطيئة التأثير ذاته: صناعة إنسان يكفر بالعدل ويؤمن بالثأر الفردي.

بدأت بخيري. دخلت منزله باسمة الثغر بحجة مواساته وتصبيره على فراق زوجته، وأهدته زجاجة العصير. سكبت له كوبًا، وظلت معه ساعتين أو ثلاثًا، حتى ظهرت عليه الأعراض، فنقلته إلى فراشه ليستريح، ثم أخذت بطاقته الشخصية والمفتاح حتى لا يحاول التوجه إلى المستشفى.

استأجرت سيارة ببطاقة خيري الميت، ثم نفَّذت الجزء الثاني من خطتها، ووزعت عصير «توت الشيطان» على أطفال الشوارع بغرض الانتقام العشوائي ممن كانوا سببًا في موت ابنها.

والآن أتى الجزء الثالث من خطتها، وهو قتلي أنا!

اختارت شجرة «ست الحسن» لسهولة زراعتها وتوزيع سمها، فثوتها حلو المذاق ولا رائحة له، ويمكن للضحية

أن تتناوله كتوت طازج أو عصير، أو في حالتي أنا: مربى التوت.

حاولت أن أزحف على الأرضية الباردة نحو الباب، لكنها بعدما أغلقت هاتفي ووضعته في جيبها وقفت تضحك ساخرة من محاولتي البائسة للفرار من الموت، قائلة:

ـ ما تحاولش، كلها ساعة وتحصَّلهم، محدش هيلحقك زي ما ملحقوش ابني!

استمر زحفي حتى منتصف الصالة، وقد بدأت أشعر بتشنجات غريبة.

سحبت فتون حقيبتها، وأخرجت المفتاح قائلة:

ـ ١٠ حبات من توت «ست الحسن» قادرين على قتل إنسان بالغ في ساعتين. تفتكر ساندويتشات المربى اللي أكلتها فيها كام حباية؟

* * *

كنت أعلم أنني سأموت قبل أن يشيب شعري وتجد التجاعيد طريقها إلى وجهي، لكني لم أتصور يومًا أن السيدة فتون التي علمتني في طفولتي أسماء الورد ومعانيها هي مَن ستقتلني!

مددت يدي نحو الباب، لكنها ركلتني جانبًا، وخرجت من الفيلّا وأغلقت البوابة خلفها.

بقيت مستلقيًا على ظهري أرتعش والعرق يتصبب مني، وصارت الرؤية ضبابية، لكني سمعت صوتًا:

- نوح! مالك؟

لم أره بوضوح، لكني كنت متأكدًا من أنها روح ياسين التي صاحت فزعًا:

- إيه اللي حصلّك؟! مين عمل فيك كده؟!

خرج صوتي واهنًا وبالكاد يُسمع:

- سم.. الإسعاف.. باموت.

وقف ياسين حائرًا، وأخذ يدور في المكان عاجزًا عن التقاط أي شيء، فقال مرعوبًا:

- مش عارف، مش عارف أمسك حاجة! أعمل إيه؟

هاجمتني نوبة عنيفة من التشنجات، وصرت أرى أضواءً عجيبة، وأسمع أصواتًا متداخلة، لكن صياح ياسين الهلع كان واضحًا:

- أعمل إيه يا نوح؟! ما تموتش!

اختفت الأضواء، وخفتت الأصوات، وساد السكون المظلم!

يبدو أنها النهاية!

٥

هل يحلم الموتى؟

لا أظن ذلك، فالأرواح لا تنام، فكيف لها أن تحلم؟

إذن كيف أحلم الآن بالبدوية صاحبة الليمونة الصفراء واقفة في منتصف كهف جبل الموتى، وهي بمفردها، بلا أي أرواح أخرى؟

تنظر البدوية نحوي بعينيها الواسعتين، وشعرها الأسود منسدل على كتفيها، وتبتسم إليّ بشفتيها المكتنزتين، وتشير إليّ أن أقترب! أذهب نحوها محلِّقًا كالطيف الهائم، وقبل أن ألمس يدها وآخذ الليمونة أشعر بيد على كتفي، فيتغير المشهد، ويختفي الكهف والبدوية والليمونة، وأجد نفسي في غرفة بيضاء كئيبة ذات مصابيح نيون خافتة وسرير حديدي رفيع، ولا يقف فيها غيري أنا وياسين الذي بدا مرتاح البال وباسم الثغر قائلًا:

- رعبتني يا أخي!

لم أجبه، كنت مندهشًا ومضطربًا.

وددت أن أسأله أين نحن، وماذا حل بي، لكني شعرت أن لساني مربوط، بينما تكلم ياسين بطلاقة:

- ما تخافش، كله هيبقى تمام.

سمعنا صوت دقة ساعة قويًا خرق أذنَي، فنظرت حولي ولم أجد أي ساعة، لكن ياسين قال متعجلًا:

- الأربعين يوم خلصوا، دي ساعتي. أنا بعتلك دليلة. خلي بالك منها يا نوح!

بدأ جسده يتلاشى، وهالته تتبدد، ثم سطع ضوء قوي كاد يعميني، فانتفضت مستيقظًا.

***

الرؤية ضبابية، لكني تبينت ضوءًا مرتعشًا في السقف. وعلى الرغم من ألم رأسي الشديد والخدر الذي انتشر في أوصالي، فإنني سمعت أصوات كل من حولي بوضوح.

- نوح! نوح صحي يا طنط!

كان هذا صوت قطز، يليه بكاء شديد، ثم يدان متعرقتان تمسكان بوجهي، ثم تنهال عليَّ القبلات:

- حبيبي يا ابني! حمد الله على سلامتك!

كانت هذه أمي بصوتها العريض ويديها السمينتين وشخشخة سلاسلها الذهبية ذات الخرز الأزرق والآيات القرآنية.

ومن بعدها جاء صوت جدتي الرفيع المحمَّل بدموع مكبوتة، تقول بنبرة آمرة:

ـ ما تُطبقيش على نَفَسه كده! سيبيه يرتاح!

توالت الأصوات. كانوا جميعًا حولي: نادية، وطارق، وأمي، وجدتي، وقطز، وقد احتجت إلى بضع دقائق لتتضح الرؤية.

كانت جدتي تمسك بالمصحف، ووالدتي تجلس بجواري بملابسها المحتشمة وحجابها الطويل وتحيطني بذراعيها، ونادية عند طرف السرير، وطارق وقطز يقفان على يميني بطمأنينة.

بصوت مرتعش لكن مسموع سألت قطز:

ـ مسكتوها؟

صاحت أمي:

ـ ده أنا أكلت فتون دي بسناني! لولا قطز حاشني عنها كنت قطَّعتها في القسم!

سحبت يدي وظلت تقبِّلها بهستيريا:

ـ سلامتك يا حبيبي! إن شا الله أنا!

ـ بِعد الشر عليكِ يا ماما!

قال قطز:

- حد يصدَّق إن طنط فتون الملاك دي تعمل كده؟!

صاحت أمي:

- ملاك؟! إلهي وإنت جاهي تسخطها قردة عشان تبقى عبرة للخلق!

سألت قطز:

- قبضتوا عليها إزاي؟

- لما لقيت الشجرة المسمومة في فيلَّا عمر، وبعد شوية ربط ومراجعة للتفاصيل فهمت إن هي اللي وراها، وأول ما واجهناها بتُهمها فضلت تزعق وتقول «لازم أطهَّر المجتمع من المتقاعسين اللي زيكم». مخها لسع، وغالبًا هتتحول على الخانكة.

صاحت أمي:

- ربنا ياخدها ويولَّع فيها ويشفي غليلي منها و...

قاطعتها جدتي بنبرتها المترفعة:

- وطي صوتك الهمجي ده!

التفتت إلى الآخرين قائلة بعجرفة:

- يلّا كلكم بره، سيبوا حفيدي يرتاح.

خرجوا جميعًا إلا قطز، فاقتربت جدتي وقبّلت جبيني قائلة:

- سلامتك يا روح عيني!

- الله يسلمك يا تيتة.

التفتت إلى قطز قائلة:

- وإنت يا طويل التيلة اتفضل قدامي.

همَّ بالخروج لكني استوقفته قائلًا:

- استنى عايزك.

اعترضت جدتي:

- عايزه في إيه؟! مش وقته كلام في الشغل، ارتاح.

- كلمتين بس يا تيتة وخلاص.

زفرت ناقمة، ثم غادرت صافعة الباب خلفها.

مال قطز عليّ قائلًا:

- فاتك نص عمرك، جدتك ومامتك اتخانقوا وكانوا هيموتوا بعض!

ـ وإيه الجديد؟! ما همّا ما بيعرفوش يقعدوا خمس دقايق مع بعض، سيبك. أنا جيت هنا إزاي؟

ـ بالإسعاف.

ـ ما أنا عارف يا غبي! قصدي مين اللي كلم الإسعاف.

ـ آآآآآآه، نسيت أقولك.

قال غامزًا:

ـ المُزة يا عم اتصلت بالإسعاف، وقالتلهم العنوان، وفضلت موجودة طول الوقت، وجدتك عمالة تزن وتقولي «مين دي؟ هو نوح مرتبط من ورايا؟»، حلفتلها ميت يمين إني ما أعرفهاش ما صدقتنيش. بتصاحب من ورايا يا واطي؟

ـ مُزة مين يا قطز؟! إنت هتهزر؟

ـ أقسم بالله واحدة زي القمر، بس ما رضيتش تقولي هي عرفت إنك مسموم في الفيلّا إزاي و...

دخلت جدتي بلا استئذان، وبدت منزعجة، فجلست بجواري زافرة بضيق، فسألتها:

ـ فيه إيه يا تيتة؟

ـ فيه إنك ندل وأنا ما عرفتش أربي! مين البنت اللي بره

دي؟

قال قطز:

- دي البنت اللي باقولك عليها، قالت إنها هتيجي تتطمن عليك النهارده تكون فُقت.

قالت جدتي منفعلة:

- أيوه بقى مين دي؟ ها؟ إنت بتعرف بنات يا نوح؟!

- أومال باعرف سحالي يا تيتة؟ ما تصلي على النبي.

- عليه أفضل الصلاة والسلام. بس ما أقعدش أنا أربي وتيجي واحدة تاخدك على الجاهز!

قال قطز ببرود:

- هدي أعصابك يا تيتة.

صاحت به:

- أنا باتعصب لما الواد ده يقولي «يا تيتة». أنا مش جدتك يا ناطحة السحاب إنت!

- الله يسامحك يا تيتة.

- «Quelle stupidité!».

- أنا متأكد إنك بتشتميني، بس معلش، إنتِ برضو جدتي.

- أووووف!

زفرت وقالت لي:

- إنت هتقولي مين البنت اللي لازقالنا من إمبارح دي ولّا لأ؟

- أشوفها، أشوفها بس عشان أعرف هي مين وأرد على معاليكي.

- مش هادخّلها غير لما تقولي هي مين.

قال قطز:

- ملكيش حق تسيبيها واقفة بره يا تيتة.

اتجه قطز ناحية الباب وفتحه بحماس ونادى الفتاة لتدخل.

* * *

لم أعد أفهم، أهذا حلم أم أني ما زلت تحت تأثير هلاوس السم؟

من باب غرفتي في المستشفى، دخلت البدوية التي كانت في مقابر جبل الموتى!

عيناها كحيلتان واسعتان، وشفتاها حمراوان مكتنزتان،

وأنفها دقيق، وبشرتها رائقة، ووجهها مستدير.

إنها هي مع فارق بسيط، وهو أن شعرها لم يكن طويلًا منسدلًا حتى خصرها كما كانت في جبل الموتى، بل كان قصيرًا كشعر الفتيان، وملابسها تواكب العصر الحالي: جينز أسود، وحذاء رياضي، وقميص حريري، وسترة جلدية سوداء، وعلى معصمها وشم لمفتاح «صول» الموسيقي، وتضع قرطًا ذهبيًا فيه حجر فيروز يتماشى مع خاتمها وسلسلتها الرقيقة.

دخلت الغرفة حاملة باقة من التوليب الأبيض، واقتربت مني على استحياء، بينما قال لها قطز:

ـ اتفضلي، اتفضلي.

وكزتني جدتي قائلة:

ـ آديك شُفتها، مين دي بقى؟

لم أتوقف عن الحملقة فيها، لقد كانت البدوية نفسها، لكن بحُلة جديدة. ولولا أن قطز وجدتي حولي ويريانها مثلما أراها لظننتها روحًا، أو لظننت نفسي أهذي.

وقفت ذات الشعر القصير التي ترتدي الأسود من رأسها حتى قدميها، عند طرف السرير، فانعكست أشعة الشمس

على وجهها البريء وملامحها الدقيقة، وقالت بصوتها الذي سكن أذنَي منذ كنت في الثامنة من عمري:

- حمد الله على سلامتك.

مدت يدها بباقة الزهور، لكن من فرط دهشتي لم آخذها منها، فرفع قطز عنا الحرج وأخذ الباقة قائلًا:

- ما كانش فيه داعي تكلفي نفسك.

ظلت جدتي ترمقها بتربص غير مبرر، بينما سحب قطز كرسيًّا وضعه بجوار سريري لتجلس عليه، ثم قال لجدتي التي تشبثت بذراعي كأنها تعلن أنني ملكيتها الخاصة:

- يلّا يا تيتة عشان...

- عشان إيه؟! أنا قاعدة جنب حفيدي!

- ما إنتِ بقالك عشرين سنة قاعدة جانبه! اديله فرصة يتنفس!

بصعوبة شديدة سحبها من يدها ثم خرجا، ولم يعد في الغرفة غيري أنا والضيفة غير المتوقعة.

ظلت تنظر حولها وتتأمل الأرضية في خجل وهي تداعب خواتمها حتى قالت بتردد:

ـ إنت بقى نوح؟

سألتها بلا تفكير:

ـ إنتِ بتاعة جبل الموتى؟

قطبت حاجبيها بابتسامة فضولية:

ـ جبل الموتى؟!

ـ إنتِ اللي اديتيني اللمونة؟

ـ لمونة إيه؟! أنا مش فاهمة حاجة!

ـ طب إنتِ اللي كلمتِ الإسعاف؟

ـ أيوه، أصل...

هزت رأسها بتوتر:

ـ لو حكيتلك مش هتصدقني.

ـ أنا هاصدق أي حاجة هتقوليها.

بدأت تسرد بتردد وبكلمات متقطعة:

ـ بابي مات.. من حوالي أربعين يوم.. لكن من أسبوع كده.. بدأت أحلم بيه.. وكان.. كان بيحكيلي.

اضطربت ونظرت إلى الأرض قائلة:

- كان بيحكيلي عنك.

- إنتِ بنت ياسين الجارحي؟

اندهشت واضطربت وتطلّب الأمر بضع ثوانٍ حتى وجدت ما تقوله:

- إنت.. إنت تعرف بابي، صح؟ أصل.. هو قالي إنك بتشوفه وهو ميت.. حكالي إنك بتشوف الأرواح.. وإنك معاه على طول.. وعلمته إزاي يطلعلنا في الأحلام.. وإمبارح وأنا نايمة حلمت بيه مرتين.. الأولى قالي فيها إن النهارده آخر يوم له على الأرض.. وإنك قلتله إن روحه هتنتقل لعالم تاني.. وبعدها مشي وقالي هيروح يودعك.. بس بعدها ظهرلي تاني وكان خايف.. وقالي إنك اتسممت في فيلّا في المقطم.. وإني لازم أكلم الإسعاف فورًا عشان هو مش قادر ينقذك.. قالي اصحي حالًا وانقذي نوح.. صحيت بلغت الإسعاف من غير ما أفكر.. وما صدقتش إنهم فعلًا لقوك وإن كل ده حقيقي مش أحلام.. وجيتلك المستشفى عشان أتأكد بنفسي إني مش مجنونة.. لقيتك زي ما بابي كان بيوصفك بالظبط و...

لم أنزل عينَي عنها وهي تتكلم مرتبكة، وقد تعرقت يداها واحمرت وجنتاها.

أيمكن للكون أن يكون بهذه الدقة والعشوائية في آنٍ

واحد؟!

أرى في عمر الثامنة روح بدوية حسناء تعلمني كيفية التواصل مع عالم الأرواح، وبعدها أقابل روح مايسترو قلقًا على ابنته، فأعلمه كيفية الظهور في أحلام الأحياء، فيظل يقص لابنته في منامها عني وعن تواصلي مع عالم الأرواح، وعندما أتعرض للموت يظهر في حلم ابنته، ويجعلها تتصل بالإسعاف لتنقذ حياتي، ثم تزورني في المستشفى وأكتشف أنها الفتاة نفسها التي أغرمت بها طفلًا؟!

قالت متوترة:

ـ إنت فاكرني مجنونة، صح؟ أكيد كلامي مش منطقي بالنسبة لك.. بس مش كل حاجة في الدنيا منطقية.. وأنا.. أنا بس كنت عايزة أتأكد إني مش باهلوس.. عشان أنا متأكدة إن اللي كنت باشوفه ده كان بابي.. وكنا بنتكلم بجد مش مجرد أحلام وتخاريف و...

ـ إنتِ اسمك إيه؟

اضطربت من سؤالي الذي لا صلة له بما ترويه، لكنها أجابتني خجلة:

ـ دليلة.

عندما قال ياسين في ظهوره الأخير في حلمي قبل أن أستيقظ في المستشفى:

«أنا بعتلك دليلة. خلي بالك منها يا نوح».

كان يعني دليلة ابنته البكرية التي منعها ظهوره لها في الأحلام من الزواج من خطيبها الخائن!

* * *

لو لم أحل قضية طه عبد اللطيف، ما كان اللواء رشوان ليكلِّفني بقضية تسمم الأطفال، وما كنت لأقابل روح ياسين!

ولو لم أعلِّم ياسين الظهور في الأحلام، ما كان ليمنع ابنته من الزواج!

ولو لم تسممني فتون، ما كنت لأقابل دليلة، وما كنت الآن على قيد الحياة!

تلك التفاصيل المتسلسلة التي نغفل عنها، أو نفعلها بلا تركيز، هي جزء من خطة كونية كبيرة دبَّرها الخالق دون أن ندري!

كل ذرة في هذا الكون لها تأثير لا ندركه!

منقذتي تُدعى «دليلة».

ولسنوات طويلة كانت بالفعل دليلتي...

شكر خاص

إلى كل من تكرَّم بوقته وعلمه لإثراء هذا العمل:

عبير فرحات

مايا المهدي

كاري ميريل

رايات وودوارد

ويتني لاستر

شارون ميليك

رضا محمد

عمر بولندي

رحاب سعدي

عن الكاتبة

وُلدت ميرنا المهدي في حي المعادي بالقاهرة، وتخرجت في مدرسة «ليسيه الحرية» في المعادي، ثم في كلية «الألسن» جامعة عين شمس. تخصصت في أدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية. حازت عدة جوائز أدبية من سفارتي كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي، لتركِّز بعدها في كتابة أدب الإثارة والتشويق.

صدر لها: رواية «قضية ست الحسن» (تحقيقات نوح الألفي ـ ١، ٢٠١٨)، والرواية القصيرة «ثلاثة عشر» (٢٠٢٠)، ورواية «روك آند رول» (٢٠٢٠)، ورواية «صديقي السيكوباتي» (٢٠٢١)، و«قضية لوز مُر» (تحقيقات نوح الألفي ـ ٢، ٢٠٢٢).

للتواصل مع الكاتبة

Email: mirnaelmahdy.1@gmail.com

Facebook: www.facebook.com/
MirnaElMahdyWriter

Twitter: @Mirna_El_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

ميرنا المهدي Goodreads:

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك

للتواصل مباشرة مع الكاتبة: